بسم الله الرحمن الرحيم

المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

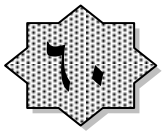

ثقافة التقريب

مجلة ثقافية شهرية تصدر عن المجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية

العدد ٦٠ ـ جمادى الثانية ١٤٣٣هجرية قمرية

اردیبهشت ١٣٩١هجرية شمسية / مايس (ايار) ٢٠١٢

- الآراء الواردة لا تعبّر بالضرورة عن وجهة نظر المجمع العالمي للتقريب
- تسلسل الموضوعات خاضع لاعتبارات فنية

المراسلات:

العنوان البريدي للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية:

الجمهورية الإسلامية في إيران –طهران –ص. ب: ٦٩٩٥– ١٥٨٧٥

العنوان الالكتروني: info@taghrib.ir

الطباعة: حسين المندلاوي / على حروف (**قلم برتر**) خاص بالنشر المحترف

النسخة رقم (٢) من www.MaryamSoft.com

ثقافة التقريب

ملحق

رسالة التقريب

مجلة تثقيفية عامة تهتمّ بعرض الأفكار التي ترتبط بوحدة الأمة مباشرة أو بصورة غير مباشرة، مع التأكيد على ضرورة وضع المسلمين أمام مسؤولياتهم الكبرى في استعادة العزّة والكرامة واستئناف البناء الحضاري

الإشراف العام

الشيخ محمد علي التسخيري

هيئة التحرير

مجموعة من الكتّاب الرساليين المهتمين بمستقبل الأمة الإسلامية وبوحدة الدائرة الحضارية للعالم الإسلامي

إعداد المجلة:

مركز الدراسات الثقافية الإيرانية العربية

www.IranArab.com

منهجنا في نشر المقالات

١ـ أن يكون المقال ما قلّ في الصفحات ودلّ على فكرة مفيدة في حقل التقريب وصحوة الأمة ووحدتها.

٢ـ للمجلة الحقّ في التلخيص وتعديل العبارات، دون أي مساس في المحتوى، كي يكون المقال منسجمًا مع الإطار العام للمجلة.

٣ـ يحقّ للكاتب أن يطلب عدم ذكر اسمه، وهيئة التحرير سوف تنشر مقالاتها دون ذكر كاتبيها تجنبًا لتكرار الأسماء.

٤. ننشر أيضًا مختارات وعصارات مما كُتب في تراث التقريب.

٥. المقالات والتعليقات التي تعارض هدف المجلّة سوف ننشرها أيضًا إذا كانت ملتزمة بأدب الاختلاف، مع الاحتفاظ بحقّنا في التعليق.

المحتوى

العدد ٦٠

من حديث القائد حول الشهيد مطهري ٤

الوحدة الإسلامية في رؤية الأستاذ آية الله مطهري ١٢

إحياء الفكر الديني..ما معناه؟ ٢٣

إقبال وفكرة الإحياء الديني ٢٦

المفهوم القرآني للإحياء ٣٤

أسباب تخلّف المسلمين ٤٢

ما هو الغيب؟ ٦٣

الإمداد الغيبي ٧١

مسألة المهدي المنتظر(عج) ٨٤

الإنسان والحيوان ٩٤

السمات العامة لفكر الشهيد مرتضى المطهري ١٠٥

من حديث السيد القائد
حول الشهيد مرتضى مطهري

هذه مقاطع من كلمات السيد القائد في مناسبات مختلفة حول الشهيد مطهري .

«أعتقد أن المحور الرئيسي لمؤتمركم يجب:

أولًا: أن يكون الشخصية الفكرية والهوية التنويرية للمرحوم مطهري ودوره في التيار الفكري والتنويري الإسلامي في البلاد، وهذا على جانب كبير من الأهمية.

ثانيًا: يجب السعي لمواصلة هذا التيار وعدم انقطاعه لأننا نحتاج لمطهري دومًا.

لا يمكن التوقف عند شخص الشهيد مطهري. ينبغي لمجتمعنا ومنظومتنا الفكرية الإسلامية أن تحقق إبداعات جديدة على أساس إبداعاته وتجديده الفكري. نحتاج أن يكون لنا أمثال مطهري في حياتنا الراهنة؛ لأن الاحتياجات الفكرية تتجدد دومًا. حول الهوية الفكرية والتنويرية للشهيد مطهري ودور هذا الرجل

الكبيرفي زمانه، لم يظهرلحد الآن تعريف جامع على ما أرى. أنجزت طبعًا بعض الأعمال الجيدة ترتبط بكتاباته، ولكن يجب معرفة ما قام به المرحوم الشهيد مطهري في عقدي الأربعينات والخمسينات في البيئة الفكرية الإيرانية. لقد خاض بقوته الفكرية وآرائه المتينة الصائبة في ميادين لم يكن قد خاض فيها أحد على صعيد القضايا الإسلامية حتى ذلك الحين. ودخل في تحديات علمية عميقة وواسعة ومفتوحة مع الأفكارالتي شاعت أو كادت تشيع في البلاد يومذاك؛ الأفكارالمستوردة المترجمة عن الغرب والشرق. خاض جهادًا على درجة عالية من الفطنة والذكاء في جبهة مواجهة الماركسية، وكذلك في جبهة مواجهة الأفكارالغربية والليبرالية.

هذا دورمهم جدًا يحتاج إلى جرأة وثقة بالنفس، وكذلك إلى قدرات فكرية واجتهادية في الميادين المختلفة، و إلى يقين و إيمان قاطع في الوقت نفسه؛ وقد توفرت كل هذه العناصرسوية في ذلك الرجل الكبير؛ فقد كان عالمًا، ومؤمنًا شديد الإيمان، وشخصًا متيقنًا من إيمانه، وكانت له ثقته بنفسه؛ هذه عناصرضرورية... أعتقد اعتقادًا راسخًا وقد قلت هذا مرارًا أن التيارالفكري الإسلامي للثورة ونظامنا الإسلامي يعتمد على أفكارالشهيد مطهري. أي إن أفكاره مثلت الأسس والأرصدة الإسلامية التي انتهلنا منها في أفكارنا الإسلامية وأفضت إلى النظام الإسلامي.

النقطة الثانية التي يجدر التفكير فيها هي استمرار هذا التيار.

لا يمكننا التوقف عند حدود الشهيد مطهري. صحيح أن كتبه لا تزال حتى بعد خمسة وعشرين عامًا من استشهاده من أوسع الكتب مبيعًا وأكثرها جاذبية و إقبالًا لدى الجيل الباحث عن الأفكار الإسلامية الرصينة المنطقية، وليس لدينا الآن في الحقيقة بديلًا ونظيرًا لمجموعة كتب الشهيد مطهري (رضوان الله تعالى عليه). ومع أن أعمالًا جيدة قد أنجزت، ولكن لا شك أن كتاباته لا تزال في أرقى المستويات من حيث الأهمية والتأثير والجاذبية والإتقان. لكن تيار الخوض في ساحة تحدي الأفكار الوافدة ونقدها العلمي والتعامل الصحيح معها وتفكيك الصحيح والسقيم منها وعرض الفكر الإسلامي فيما يتعلق بها، يجب أن يستمر طبعًا، وهذا من الواجبات المهمة التي تواجهنا.

وكما ذكرت فإننا بحاجة إلى نظراء لمطهري في العقود القادمة. بعد الثورة الإسلامية وتأسيس النظام الإسلامي واجه الفكر الإسلامي تحديات جادة، وبعد هذا أيضًا سيخلقون له تحديات جديدة في كل يوم. لن يقلعوا عن هذا طبعًا. علينا أن نكون على أهبة الاستعداد ونحن قادرون على ذلك. الرصيد الثر واللامتناهي الذي نمتلكه اليوم من الثقافة الإسلامية يزودنا في هذا السجال بإمكانيات كبيرة جدًا إن كنا ممن ينتفع منها.

الحق أن لدينا ترسانة فكرية وثقافية هائلة إنْ استطعنا

استخدامها بصورة صحيحة. ثمة اليوم لحسن الحظ فضلاء، وعلماء، وأفراد صالحون، لديهم قدرة علمية جيدة من حيث سعة آفاقهم النظرية وقوة أفكارهم، وعليهم النزول إلى هذه الميادين وتوسيع نطاق المساهمة فيها. إن حاجتنا اليوم أكبر بكثير من الفترة التي نشط فيها المرحوم الشهيد مطهري أي عقدي الأربعينات والخمسينات. كانت حاجتنا في ذلك الحين من نوع معين، وهي اليوم أوسع وأعمق بكثير، ومن الضروري مواصلة هذا الطريق.

وجّهوا مؤتمر تكريم ذكرى الشهيد مطهري نحو تشجيع البعض للخوض في هذه المضامير والاستعداد لمواجهة الأمواج الدعائية الجديدة الوافدة على كافة الصعد؛ على صعيد الفلسفة، والكلام، وقضايا البلاد المختلفة ذات الصلة بالمباحث الإسلامية. على العلماء والفضلاء والشباب ـ خصوصًا طلبتنا الشباب ـ أن يكونوا قد قرأوا دورة كاملة من كتب الشهيد مطهري، حتى تكون أعمالهم إذا أرادوا العمل من قبيل «من بنى فوق بناء السلف»، أي يرتكزوا على أساس ذلك الفكر و ينطلقوا من حيث انتهى الشهيد مطهري ليفتحوا قممًا أعلى إن شاء الله ويرفعوا راية الفكر الإسلامي هناك.

أما النقطة التي أود ذكرها ـ وقد ذكرتها سابقًا ـ فهي أن الأفضل في هذه الذكريات السنوية التشديد على القضايا الفكرية أكثر.

لو صنفنا آثار الشيخ مطهري إلى قسمين أو ثلاثة، فإن بعضها مثل

العدل الإلهي سيكون فلسفيًا محضًا. والبعض منها يعرض المعارف الإسلامية، بمعنى أنه اختار قضايا ومعارف معينة من الإسلام وناقشها بفكره التحليلي العميق. وربما أمكن القول إن معظم أعماله من هذا القبيل. والبعض من أعماله تخصصية علمية محضة، كالعلوم الإسلامية وما شاكل من كتب وجدت طريقها للنشر. لديه في كل واحد من هذه الفروع الثلاثة ـ لا سيما الفرع الثاني ـ الكثير من الأفكار. لو عمدنا في كل سنة من السنوات القادمة بمناسبة ذكرى استشهاد الشيخ مطهري إلى مناقشة إحدى أفكاره وأعماله بشكل نقدي، فيتم نقدها بنحو حقيقي وتذكر أدلتها ووجوهها، وتعرض جميع النقاط الدقيقة التي رمى إليها، و إذا استطاع شخص تكميلها بآرائه فيذكر هذه الآراء ويدافع عنها وباختصار **إذا قامت حركة علمية نقدية لأعماله تفضي إلى تمتين نظرياته أكثر فأكثر فإن مثل هذه الحركة ستمثل مقطعًا من مقاطع العمل العلمي.**

طبعًا، كان لي في السنوات الماضية أيضًا اقتراحات بخصوص العمل العلمي المتصل بآثاره، وربما حظيت بعض تلك الاقتراحات بالاهتمام وتحققت. لكن ما أقوله حاليًا هو أن نأتي بأفكاره إلى الساحة. كتب كتابًا بعنوان *الإسلام ومتطلبات العصر* حول قضية على جانب كبير من الأهمية. لقد كانت هذه المجموعة المستلّة من ثلاثين محاضرة موجودة عندي لفترة من الزمن. أي إنه أعطاني تلك المحاضرات لأنظمها وأعدها ولم تتهيأ الفرصة لذلك فأعدتها إليه. ثم

بادر هو أو شخص آخر لإعداد تلك المحاضرات. طبعًا لو حرر الشيخ مطهري نفسه تلك المحاضرات ولم يشرك أحدًا في مراحل الكتابة والإعداد لخرج العمل بشكل مختلف، أي لكان أفضل مما هو عليه الآن. مع إننا لو نظرنا لهذا الكتاب الآن أيضًا لوجدنا فيه لباب آرائه. بمعنى أن الموضوعات والقضايا التي تنتهي إليها آراء المفكر وتقدح في الذهن بوارق الأعمال الأخرى، موجودة في هذا الكتاب. غير أن التعاطي مع الموضوعات لم يكن على غرار التعاطي في صفوف الدرس أو التعامل مع الموضوع في منظومة حقيقية. كان تعاملًا شخصيًا حيث ألقى بعض المحاضرات ثم جمعها ودوّنها. وبوسعكم أخذ لباب الموضوع وما طرحه في هذه المحاضرات كأساس لآرائه ـ وهذا هو أساس القضية ـ و إعداده وتنظيمه وطرحه. إذا تم هذا فقد تظهر عدة كتب مفيدة وجيدة في ضوء كل واحد من كتبه...»

* * *

«الحمد لله أن الحركة الفكرية للمرحوم الشهيد مطهري والتيار الذي أطلقه بفكره القوي، وروحه المخلصة، ونشاطه الدؤوب، لا يزال مستمرًا وله من يتابعه.

على مستوى القضايا الفكرية، كان يتمتع بثلاث خصائص: أولًا كان إنسانًا قوي الفكر ومفكرًا حقيقيًا. **لم يكن يتوخى من عرض الأفكار ونشرها سوى القربة إلى الله، و إشاعه الدين، وترويج الحق، ومقارعة الباطل**. الإخلاص كان يغمره ويغمر أعماله

الشخصية، وهذا ما يجعل الخصوصية الثانية محسوسة طبعًا. افترضوا أن البعض من أهل الفكر، لكنهم لا يطرحون الأفكار في سبيل الله، إنما لأجل التبجح بعلمهم مثلًا، أو لإرضاء الناس، أو ليقولوا إننا فلاسفة. لكن الشهيد مطهري لم يكن كذلك. كان يطرح الأفكار في سبيل الله والإسلام. كان يتحرق حقًا، ويغلي ويطرح أفكاره.

والخصوصية الثانية هي بقاء أفكاره. أي إن الإخلاص يترك تأثيره والله تعالى يبارك أي عمل يتم إنجازه بدافع الإخلاص.

خصوصيته الثالثة مثابرته وعدم كلله أو تعبه. لم يكن ليقعد ليأتوه ويطلبوا منه شيئًا. حينما لا يأتونه كان هو الذي يبادر ويقصد العمل.

كانت هذه الخصائص الثلاث موجودة فيه. والآن يمكن الشعور بالتيار الذي أطلقه بفضل هذه الخصوصيات الثلاث في الواقع الراهن للبلاد والثورة، وكلما انقضى الزمن على الثورة وابتعدنا عن بدايتها، أتسع هذا التيار وانتشر أكثر.

حينما ترمون حجرًا في الماء فإنه يحدث أمواجًا تتسع شيئًا فشيئًا. ولكن مع اتساع دائرة الموجة تتلاشى الدوائر وتبهت إلى أن تختفي تمامًا. وهذه هي حالة بعض الأمور والشخصيات والأفكار. تثير الضجيج في البداية فتتسع دوائرها، لكنها تبهت وتبهت مع مرور الوقت إلى أن تنمحي. وفي المقابل ثمة أمواج تكبر وتتسع باستمرار منذ يومها الأول مهما كانت الطريقة التي انطلقت بها، سواء

بضجيج أو بدون ضجيج. المثل الأعلى لمثل هذه الأمواج حادثة كربلاء الإمام الحسين عليه السلام. كلما انقضى الزمن على بداية الموجة التي أطلقها الإمام الحسين كبرت حلقاتها وبرزت وتحولت إلى جبل من أمواج. تكوّنت تلك الموجة بداية ضمن دائرة محدودة في الصحراء. وتصوّرالأعداء أن الأمرسيبقى طي الكتمان والنسيان، لأن كل شيء قد زال وانمحى. ولكن كلما مضى الزمن أكثر كلما اتسعت وبرزت تلك الموجة أكثر. وكذا الحال بالنسبة لفكرالشهيد مطهري لحسن الحظ.

في زمن حياة الشهيد مطهري كانت هناك أفكارأكثربريقًا وبهرجة من أفكاره. أفكارجذابة جدًا. وربما كانت بعض تلك الأفكارجيدة حقًا. أي لا يتسنى القول إنها جميعًا كانت أفكارًا خاطئة. بعضها كان صحيحًا والبعض غيرصحيح. لكنها كانت ذات تأثيرآني كبير. ومع أن دائرتها كانت واسعة لكنها لم تكن أفكارًا خالدة.. كانت أفكارًا خاصة بفترة معينة تملأالفراغ لبرهة زمنية خاصة. لم تكن أفكارًا تبقى كتيارمتجدد. لكن فكر الشهيد مطهري بقي كتياريتنامى يومًا بعد يوم. وكذلك هواليوم والحمد لله.

حينما أنظرفي الإذاعة والتلفزيون وعلى مستوى المجتمع وفي كتبه، أرى أن أفكاره تتألق باضطراد. وعليكم متابعة المهمة التي توليتموها لنشرأفكاره وأعماله كمسؤولية وكواجب حتمي».

الوحدة الاسلامية

في رؤية الاستاذ الشهيد آية الله مطهري

محمد علي التسخيري *

قضية تقارب المذاهب الإسلامية ووحدة الأمة تحتلّ مساحة كبيرة من نشاطات الشهد مطهري الفكرية والدعوية والعملية. وهذه ظاهرة طبيعية في رجل يحمل همّ إحياء الأمة.

باختصارنذكرأهم محاورخطاب مطهري في هذا المجال.

المحورالأول: اهتمامه بخطاب الوحدة في القرآن الكريم، ويكررفي أحاديثه آيات من كتاب الله تؤكد على وحدة الصف الإسلامي مثل قوله سبحانه: ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾، وقوله: ﴿وَلاَ تَكُونُواْ كَالَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَاخْتَلَفُواْ مِن بَعْدِ مَا جَاءهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾.

وقوله: ﴿وَلاَ تَنَازَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ وقوله:

---

* -الأمين العام للمجمع العالمي للتقريب بين المذاهب الإسلامية.

﴿وَإِن طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا﴾..

ويذكر الآية الكريمة: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ ويرى أن الدعوة في الآية إلى مطلق الخير، وأن أهم الخير الدعوة إلى الوحدة الاسلامية[1].

المحور الثاني: سرد سيرة النبي والإمام علي في المحافظة على وحدة الأمة. بشأن سيرة النبي(ص) يذكر اهتمام الرسول بعقد الأخوة بين المهاجرين والأنصار، حتى كانوا لأمد يتوارثون.

ثم يطيل الحديث في سيرة أمير المؤمنين علي(ع) في هذا الإطار، ذلك لأن مخاطبيه عادة هم الشيعة، يريد بذلك أن يقول لهم إذا كنتم شيعة علي حقًا فعليكم أن تكونوا أكثر من غيركم اهتمامًا بوحدة الأمة، رادًا بذلك على الفئة التي تتخذ من الولاء لآل البيت مدخلًا للتفرقة بين المسلمين.

وفي سيرة علي (ع) يركز على موقفه من الخلفاء لحفظ وحدة الأمة، وتعامله بإخلاص معهم لصيانة الإسلام والمجتمع الاسلامي، من ذلك نصيحته للخليفة الثاني أن لا يخرج مع الجيش في فتح إيران خشية أن يسبب قتله في تجرّؤ العدوّ وفي تصعيد معنويات الجيش المعادي.

ويشير أيضا إلى موقف أبي سفيان الذي حرّض عليا(ع) لأن يثور على بيعة أبي بكر متظاهرًا بأنه يؤمن بأحقية علي في الخلافة، والى

---

١ - يادداشتهاي استاد مطهري ٧/ ٤١٨ - ٤١٩.

موقف عليّ(ع) في رفض هذا التحريض بشكل حاسم، مؤكدًا اهتمامه بسلامة الإسلام.

بعد ذلك يقول الاستاذ الشهيد: «يبدو أن يد أمثال أبي سفيان لا تزال تعبث للتفرقة بين المسلمين متظاهرة بالولاء لآل البيت»!! ويحذّر من هذه الايدي مؤكدًا ضرورة وضع سيرة علي(ع) نصب العين لدفع شرّ هؤلاء المفرقين [1].

وفي كتابه «سيرى درنهج البلاغة» يركز على موقف علي(ع) من وحدة الأمة، وما قدمه على هذا الطريق من تضحيات. ولا بأس أن أنقل عنه عبارة تنبئ عن مواجهة في عصره بين التقريبيين الإحيائيين والمفرقين المتحجرين يقول:

علي أصبح فداء للوحدة الإسلامية، أي شخص كان بقدر علي في احترام الوحدة؟ الآخرون كانوا يقطعون وهو كان يوصل.

(من المؤسف) أن رجلًا اليوم يصعد المنبر ليقول: «كنت بحمد الله منذ بداية حياتي معارضًا للوحدة الإسلامية» لا كثّر من أمثالك في هذا المجتمع يا رجل!! ألم تسمع قوله تعالى ... [2] ثم يذكر الآيات الداعية إلى الوحدة ونبذ الاختلاف.

المحور الثالث: محور بيان طبيعة الدعوة الإسلامية، وهو ما يؤكد عليه الاستاذ الشهيد في كتاباته ومحاضراته بسبب شيوع الخطاب

---

١ - امامت ورهبري / ١٨ - ٢٠.

٢ - مجموعه آثار٢٥/ ٣٠٧.

القومي والطائفي في عصره، فيفصّل القول في عالمية الإسلام، ويعرض موقف القرآن والسيرة من الأطرالقومية والعشائرية وأي إطار آخريفصل بين المسلمين.

يستعرض الخطاب الغربي الموجّه إلى الايرانيين بشأن الدين الاسلامي.. وهو خطاب يزعم أن الإسلام غريب على الإيرانيين ولا يرتبط بهم لا قوميًا ولا لغويًا ولا ثقافيًا، ويردّ على ذلك في كثيرمن كتبه مؤكدًا على عالمية الدعوة الإسلامية وأسسها الانسانية، ومشيرًا إلى أن المسيحية التي يعتنقها الغرب هي دعوة انبثقت من أرض فلسطين فهل يمكن اعتبارها غربية عليهم؟!

ثم يستعرض الأسس التي يقوم عليها الإسلام في تقويم الانسان من القرآن: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ ومن السنة: «يا معشر قريش إن حَسَب الرجل دينه ومروءته خُلُقه، وأصله عقله والا إن العربية ليست بأبٍ والد ولكنها لسان ناطق، فمن قصربه عمله لم يبلغ به حَسَبُه»[1].

المحورالرابع: الحج ووحدة المسلمين. خصص الأستاذ الشهيد كتابًا للحديث عن الحج وكله يدورحول دورالحج في ترسيخ وحدة المسلمين، والمعاني التي تنطوي عليها مناسك الحج من توحيد للصفوف وتأليف للقلوب و إزالة للفوارق القومية والمذهبية والطبقية.

ويرى أن سنّة الرسول(ص) تقتضي تكريس كل شيء في

---

١ - انظر" خدمات متقابل إيران واسلام" ص ٦٢ - ٦٩.

الحج على طريق وحدة المسلمين، واستشعارروح الأخوة بينهم. إذ إن رسول الله(ص) قد استثمرهذا الموسم ليعلن قائلًا: «أيها الناس إنّ ربكم واحد وأباكم واحد، كلكم لآدم وآدم من تراب. إن أكرمكم عندالله أتقاكم. وليس لعربيّ على عجمي فضل الا بالتقوى» (تحف العقول/ ٣٤).

ويذكرعن علي(ع) قوله عن الحج: «جعله سبحانه وتعالى للإسلام علمًا» (نهج البلاغة/ الخطبة١).

ويذكرمعنى العلم بأنه الراية التي يجتمع حولها المدافعون عن حياض الأمة، وهي ترمزإلى حياة الجماعة وبقائها وقدرتها ومقاومتها. والعكس من ذلك إذا انتكست الراية فإنها تدل على السقوط والاندحار.

وينقل عن الإمام الصادق قوله عن الحج أيضًا: «فجعل فيهم الاجتماع من الشرق والغرب ليتعارفوا. ويشرح المناسك واحدًا واحدًا مبينًا أنها جميعًا تنطوي على معنى ترسيخ مفهوم الجماعة والأمة الواحدة في الإسلام»[1].

المحورالخامس: رفض مقولة «إما تقبل كل ما عندي أو ترفض كل ما عندي». هذه هي عبارة الأستاذ الشهيد، وهي تعبيرآخرعن مقولة: لنتعاون فيما اتفقنا عليه ويعذربعضنا بعضًا فيما اختلفنا فيه.

ينقل رأي المعارضين لوحدة المسلمين حيث يقولون إن الوحدة

---

١ - انظرالحج، ص ص ٦٧، ٦٨، ٧٩، ٨٠، ٨١ .

تعني التنازل عن المعتقدات، وهم بذلك يخلطون بين توحيد المذاهب ووحدة الامة في الإطار الاسلامي. ويوضّح أن الوحدة تعني التعاون في حقل المشتركات وهي كثيرة للغاية، ويبقى كل مذهب محتفظًا بآرائه الخاصة. ويورد أمثلة من سيرة علي وآل عليّ، فهم و إن كانوا يحملون رؤيتهم الخاصة، غيرأن ذلك لم يمنعهم من أن يقولوا: «والله لأسلمنّ ما سلمت أمورالمسلمين ولم يكن فيها جورإلاّ عليّ خاصة» (نهج البلاغة/ ٧٢). ويذكرلعليّ(ع) أيضًا قوله: «من استحكمت لي فيه خصلة من خصال الخيراحتملته عليها واغتفرت ما سواها ولاأغتفرفقدَ عقل ولادين» حاول الاستاذ الشهيد في مشروعه الفكري أن يرسّخ فكرة وحدة النفوس الانسانية الالهية ويدعو دائمًا إلى تبديل (أنا) إلى (نحن) ويرى أن هذا التبديل هو واحد من أهداف المصلحين الكبارعبرالتاريخ. ويغوص في بحار التاريخ والأدب ليستخرج منها ما يؤيد كلامه ويجعله مؤثرًا في النفوس. يستشهد في هذا الموضوع بمولانا جلال الدين الرومي الذي يقوم عرفانه على أساس توحيد النفوس و إزالة ما يمنع التقاءها على الحبّ والوداد. من ذلك قوله:

جان گرگان وسگان ازهم جداست

متحد جانهاي شيران خداست

أي: إن نفوس الذئاب والكلاب متفرّقه/ بينما تتحد أرواح أسود الله.

همچوآن يك نورخورشيد سما

صد بود نسبت به صحن خانه‌ها

أي: مثل نورالشمس الواحدة في السماء/ تصبح مائة عندما تتفرق في صحن البيوت

ليك يك باشد همه أنوارشان

چون كه برگيري تو ديوارازميان

لكنّ أنوار(هذه البيوت) تصبح واحدة/ عندما تزيل الجدران بينها [1].

المحورالسادس ـ العواطف الانسانية والوحدة: يرى الاستاذ الشهيد أن الانسان بذاته يتجه إلى النزعة الفردية، وهذه النزعة الفردية تصطدم عادة بالنزعات الفردية للآخرين، ويحدث الصراع بين الافراد. غيرأن ثمة عوامل أخرى قد تأتي وتفضّ هذا الصراع، وهذه العوامل إما أن تكون «مصلحية» أو «رسالية».

العوامل المصلحية تجمع الفرقاء في تعاون تجاري أواقتصادي فيرى كل واحد من الشركاء أن مصلحته مرتبطة بمصلحة غيره من الشركاء عندئذ يتعاونون في إطارتحقيق هذه المصلحة، وهذا يمكن أن نطلق عليه اسم «تعاون» لا «تآلف».

التآلف يأتي من اجتماع الناس على مصلحة رسالية مثل مصلحة

---

١ - آشنايي با قرآن ١٨/٥ - ٢٩.

الوطن والقوم، غيرأن التاريخ لم يشهد مصلحة رسالية تجمع الافراد وتؤلف بين قلوبهم كالمشروع الديني.

ثم يذكرالاستاذ الشهيد أمثلة من تآلف المسلمين في ظل الرسالة الإسلامية في عصرها الاول، وينقل نصوصًا من سيرة الصحابة ومن سيرة الامام علي تبين قدرة الدين على رفع مستوى هموم الناس إلى حمل هموم الأمة حتى بلغ بالامام علي(ع) إلى أن يقول:

أو أبيت مبطانًا وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى أو أكون كما قال القائل:

وحسبك داء أن تعيش ببطنة وحولك أكباد تحن إلى القدّ

(نهج البلاغة، الرسالة ٤٥).

وتأكيد القرآن على هذه الالفة بين القلوب تبينها آيات متعدّدة وتبين أهميتها كقوله سبحانه:

﴿وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِفَأَنقَذَكُم مِّنْهَا..﴾ وقوله: ﴿لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفَتْ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌحَكِيمٌ﴾[1].

المحورالسابع: الوحدة والحياة: في هذا المحوريتجه الاستاذ الشهيد نحو فهم حضاري للوحدة، فهو يرى أن الإسلام مهمته الإحياء: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾.

---

١ - آشنايي با قرآن ٣/ ١٦٦ - ١٧١.

ويرى أن طبيعة الجسم الحي أن يكون متواصلًا متواسيًا مرتبطًا ارتباطًا عضويًا. وفي ذلك يقول الرسول(ص): «مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائرالجسد بالسهروالحمى». (الجامع الصغير٢/١٥٥).

يقول في كتابه: «احياي تفكراسلامي»: «إحدى علامات الحياة في المجتمع أن يقوى التضامن بين أفراده، خصائص الموت أن تتلاشى الاعضاء وتتفرق وتنفصل عن بعضها، وخاصية الحياة في المجتمع التضامن والاتحاد بين اكثرأعضائه وجوارحه. وهل المجتمع الاسلامي اليوم مجتمعًا حيًّا أم ميتًّا؟ بسبب ما نراه بين المسلمين اليوم من نزاعات، وما ينشغلون به من حروب وصراعات داخلية، وما يوفرونه للعدوّ من فرص للسيطرة على مقدراتهم. فهم أموات»!![1].

المحورالثامن: العشق والوحدة: العشق بغضّ النظرعن نوعه أهو غريزي أم روحي يُخرج الانسان من دائرة ذاتياته. الذاتية سجن وحصار، وعشق الغيريكسرهذا الحصار.

الانسان القابع في ذاته الذي لا يحمل مشاعرحبّ لغيره إنما إنسان جبان نحيل متكبرقاسي القلب مغرورليس في روحه أية إضاءة ولمعان. و إذا دخل العشق يغيّرجوهرالانسان ويجعله فردًا رقيقًا ذكيًا وثّابًا، كما يقول المولوي:

ازمحبت تلخها شيرين شود ازمحبت مسها زرين شود

---

١ - ص ٢٣ و٢٤ من الكتاب.

أي: من المحبّة يصبح كل مرّحلوًا/ ومن المحبّة يصبح النحاس ذهبًا[1]".

ومن هذه النظرة ينطلق الاستاذ الشهيد في فهم العلاقة بين الرجل والمرأة، فهي ليست علاقة شهوية محضة، إذ إن هذه العلاقة تكرّس الذاتية، بل هي أسمى من ذلك فهي علاقة ودّ ورحمة وسَكَن كما يقول سبحانه: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِّتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً﴾[2].

ويخلص الاستاذ الشهيد من هذا المحورأنّ هبوط عاطفة الحبّ والودّ في النفوس عامل تمزيق وتفتيت، بينما الحبّ يلين القلوب ويصقل العواطف ويهذّب الطباع ويجمع المتفرقين.

المحورالتاسع: العدل والاحسان والوحدة: يقف الاستاذ الشهيد عند قوله سبحانه: ﴿إِنَّ اللّهَ يَأْمُرُبِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَ إِيتَاء ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاء وَالْمُنكَرِوَالْبَغْيِ﴾.

فيرى أن البشربحسب عواطفهم الاجتماعية لهم ثلاث حالات: العدل أوالاحسان أوالبغي.

بالعدل يتعامل الناس على أساس حفظ الحقوق، يحافظون على حقوقهم ولا يعتدون على حقوق الآخرين، وبالإحسان يتعامل الناس على أساس الايثار، يتنازلون عن حقوقهم من أجل مصالح غيرهم،

---

١ - يادداشتهاي شهيد مطهري ٩/ ٢٧٨ - ٢٧٩.

٢ - آشنايي با قرآن ٦/٧٦ - ٧٨.

ينفقون من أموالهم وجاههم وراحتهم لمساعدة المحتاجين اليهم.

وبغير العدل والإحسان لا يكون إلاّ البغي. والبغي أن يعتدي الانسان على حقوق الآخرين.

وبلهجة حادّة قاسية يقول الأستاذ الشهيد: "لو تطلعنا إلى مجتمعاتنا الإسلامية لرأينا التعامل السائد هو البغي. فمجتمعاتنا تضجّ بأذى الآخرين وكأننا مصابون بالساديّة!

ثمة كلام شائع يقول إن الغربيين ذوو عقل ومنطق ونحن الشرقيين ذوو عاطفة. كلاّ!! لو كانت عندنا عاطفة اجتماعية لما كان بيننا هذه العلاقات المحتقنة وهذه الذاتيات المستفحلة. يكذب بعضنا على الآخر، ونتظاهر أحيانًا بالكرم فنقيم الولائم، لكننا لا نكفّ عن ظلم من تحت رعايتنا من زوجة وأطفال ومستخدمين [1].

ولعلّ هذه النبرة الحادّة تدلّ على أن الأستاذ الشهيد كان مستاءًا مما يراه في المجتمع من ازدواجية الشخصية ومن مظاهر تدلّ على نسيان الاهداف الانسانية التي خلق الانسان من أجلها.

وكيف لا يتألم ولا يثور وهو الإحيائي الذي يريد أن يعيش الناس لأهداف أكبر من مصالحهم الشخصية .. لأهداف توحّدهم وترفعهم وتبارك لهم عمرهم وتزكّيه!!

---

١ - يداشتهاي شهيد مطهري ٧/٤١٨.

إحياء الفكر الديني.. ما معناه؟

مرتضى مطهري

أوّل مسألة ينبغي أن نؤكد عليها في هذا المجال هي أن أحكام الإسلام حية لا يعتريها موت أونسخ. والله سبحانه تعهد صيانة هذا الدين إذ قال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾.

خاصية الخلود هذه هي التي تميزالدين الخاتم عن النظريات العلمية التي قد تموت إلى الأبد مثل نظرية بطليموس في الهيئة ونظرية العناصرالأربعة للطبيعة.

مما تقدم نفهم أن المقصود من إحياء الفكرالديني ليس هو إحياء الدين نفسه، بل إحياء التفكيربشأن الدين، وبعبارة أخرى غسل الأدمغة مما تراكم عليها من انحرافات وتشويهات بشأن الدين. وما ورد في الروايات عن الدورالذي يمارسه المهدي الموعود (عليه السلام) بشأن تجديد الدين، فإنما يعني هذا اللون من التجديد، تجديد يتجه إلى إحياء السنة و إماتة البدعة.

فكرة الإحياء نجدها فيما ورد عن آل بيت رسول الله(ص) حيث قالوا: «أحيوا أمرنا».

كما وردت في عبارات أميرالمؤمنين (ع) كلمة الإحياء إذ قال:

«أحيوا السنة وأماتوا البدعة»[1].

وقال متحدثًا عن المهدي الموعود: «فيريكم كيف عدل السيرة ويحيي ميت الكتاب والسنة»[2].

ويقول أيضًا: «إنه ليس على الإمام إلاّ.. و إحياء السنّة»[3].

جدير بالذكر أن مسألة الإحياء هذه راجت بين علماء الدين، وسادت فكرة ضرورة التجديد بين مدة وأخرى. الإحساس بهذه الضرورة شكّل أرضية انتشار حديث مختلق بين علماء السنة والشيعة يدور حول ظهور مجدّد على رأس كل مائة سنة. وراح الفريقان يضربون الأخماس في الأسداس ليشخّصوا هؤلاء المجدّدين في التاريخ.

فكرة الإحياء في أحاديث أهل البيت وعند علماء المسلمين تعني طبعًا إزالة ما علق به من عادات وتقاليد اتخذت مع مرّ الزمن صفة دينية وليست هي من الدين بشيء.. كما أنها تعني تقديم الدين بالشكل الذي يواكب المتطلبات المتغيرة للزمان.

قد يعترض معترض على فكرة الإحياء مستندًا إلى الآية الكريمة: ﴿ يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يحْييكُمْ ﴾.

١- نهج البلاغة، ج ٢، ص ١٩٨.

٢- نهج البلاغة، ج ٢، ص ٩١.

٣- نهج البلاغة، ج ٢، ص ٣٦.

ويقول: إن الآية تصرّح أن الدين هو عامل إحياء الإنسان فكيف لإنسان أن يحيي الدين؟ هذا الاعتراض يفترض وجود تعارض في فكرة إحياء الإنسان للدين، وبين إحياء الدين للإنسان. لكن هذا التعارض غير موجود في الواقع. فالتقوى مثلًا تحصّن الإنسان والإنسان بتحصّنه يتزود بالتقوى، ولا تعارض بين ذلك. والغذاء يصون الإنسان، والإنسان ينبغي أن يصون الغذاء من التلوث بالآفات. والدين بدوره يصاب بالآفات، كما ورد في الحديث النبوي الشريف: «آفة الدين ثلاثة: إمام جائر، وعالم فاجر، ومجتهد جاهل».

هذا إضافة إلى ماذكرناه بشأن معنى إحياء الدين، حيث أوضحنا أنه إحياء لأفكار الأمة وتصحيح لمواقفها تجاه الدين. فحياة الدين لا تنفك عن حياة الأمة، تمامًا مثل العلم الذي يموت بموت حامليه.

واجب الإنسان المسلم في إطار إحياء الدين إذن يتلخّص في إحياء السنة و إماتة البدعة أي تولّي مسؤولية خلافة «المحيي والمميت» على ظهر الأرض.

إقبال وفكرة الإحياء الديني

مرتضى مطهري

محمد إقبال اللاهوري من الشخصيات المعاصرة التي انبرت إلى مسألة الإصلاح الديني. وأخيرًا تُرجم له كتاب إلى الفارسية يحمل اسم *إحياء الفكر الديني في الإسلام* ويضم سبع محاضرات أكاديمية ألقاها العلامة في باكستان تحت العناوين التالية:

- المعرفة والتجربة الدينية.
- المحك الفلسفي وتجلّيات التجربة الدينية.
- الحرية وخلود الذات البشرية.
- روح الثقافة والحضارة الإسلامية.
- مبدأ الحركة في الإسلام.
- تصور الله ومعنى الدعاء.
- هل الدين ممكن؟ ويبدو أن هذا العنوان الأخير مستلّ من تساؤل طرحه «كانت».

ولابد أن نؤكد في البداية أن معالجة إقبال للموضوعات التي طرحها ليست كاملة، وغير خالية النقص، لكنها تستحقّ كل التقدير والتثمين لصدورها من مفكر سبر أغوار الفكر الأوروبي واطّلع بدقة على الحضارة الأوربية.

إقبال شاهد الحضارة الغربية عن كثب، وجهد في فهمها وتحليلها وكتب بلغتها حتى عرفه الغربيون كعالم مفكر، لكنه لم ينبهر بمظاهر هذه الحضارة، بل حمل عليها وأكد على ما تنطوي عليه من أخطار، وعلى المستقبل الأسود الذي ينتظرها، وحذّر شعوب الشرق من الانجرار وراءها.

يقول في ديوانه «ماذا ينبغي أن تعمل شعوب الشرق»:[1].

«ولكن إياك والحضارة اللادينية التي هي في صراع دائم مع أهل الحق، إن هذه الفتانة تجلب فتنًا وتعيد اللاّت والعزّى إلى الحرم، إن القلب يعمى بتأثير سحرها، و إن الروح تموت عطشًا في سرابها، إنها تقضي على لوعة القلب، بل تنزع القلب من القالب، إنها لصّ قد تمرّن على اللصوصية فيغِير نهارًا وجهارًا، و إنها تدع الإنسان لا روح فيه ولا قيمة له».

ويقول في الديوان المذكور:

«إنّ شعار الحضارة الحديثة الفتكُ ببني آدم الذي تقوم عليه تجارتها، وتنفق سلعتها، ليست هذه المصارف العظيمة إلا وليدة دهاء اليهود الأذكياء الذي انتزع نور الحق من صدور بني آدم. إن العقل والحضارة والدين حُلُم من الأحلام مالم يعد هذا النظام رأسًا على عقب».

«إن أساس هذه الحضارة ضعيف منهار، وجدرانها من زجاج لا تحتمل صدمة».

١- اعتمدنا في ترجمة مقتطفات هذا الديوان على كتاب «روائع إقبال» السيد أبو الحسن الندوي ص ٦٩ –٧١ .

«إن الفكرالمارد الذي أزاح الستارعن قوى الطبيعة أصبح بمجموعه يهدّد وكرالغربيين ومهدهم».

«إن العصريتمخّض عن عالم جديد، و إن العالم القديم - الذي حوّله الغربيون مكانًا للقمار، يقامرفيه بأمن العالم وكرامة الأمم - يلفظ أنفاسه».

«إن نورالحضارة باهر، وشعلة حياتها ملتهبة وهّاجة، ولكن لم يكن في ربوعها من يمثّل دورموسى فيتلقّى الإلهام، ويتشرّف بالكلام، ولا من يمثّل دورإبراهيم فيحطّم الأصنام، ويحوّل النارإلى برد وسلام».

«إن عقلها الجريء يغِيرعلى ثروة الحب وينموعلى حساب العاطفة. إن عماليقها وثوارها قد طغى عليهم التقليد فلا يخرجون - حتى في ابتكارهم وثورتهم ــ عن الطريق المرسوم والدوائر المحدودة».

«لقد تضخّم العلم وتقدّمت الصناعة في أوربا، ولكنها بحر الظلمات ليست فيه عين الحياة، إن أبنية مصارفها تفوق أبنية الكنائس في جمال البناء وحسن المظهروالنظافة، إن تجارتها قمار يربح فيه واحد ويخسرملايين، ما هذا الذي تتبجّح به أوربا من علم وحكمة وسياسة وحكومة إلاّ مظاهرجوفاء، ليست وراءها حقيقة، إنّ قادتها يمتصون دماء الشعوب وهم يلقون درس المساواة الإنسانية والعدالة الاجتماعية، إن البطالة والعُري وشرب الخمروالفقرهي فتوح المدنية الإفرنجية، إن الأمة التي لا نصيب لها في التوجيه السماوي

والتنزيل الإلهي غاية نبوغها تسخير الكهرباء والبخار، إن المدنية التي تتحكم فيها الآلات، وتسيطر فيها الصناعة تموت فيها القلوب ويقتل فيها الحنان والوفاء، والمعاني الإنسانية الكريمة».

ويقول في كتاب *إحياء الفكر الديني في الإسلام*:

«أبرز ظاهرة في التاريخ الحديث السرعة العظيمة التي يتحرك فيها العالم الإسلامي روحيًا صوب الغرب»[1].

ويستدرك إقبال على عبارته السابقة موضحًا أن الحركة تجاه الجانب العلمي (العقلي) من الحضارة الغربية لا ضرر فيه:

«هذه الحركة ليست باطلة أو خاطئة، لأن الحضارة الأوربية، في جانبها العقلي، تعتبر مرحلة متطورة لأهمّ مراحل الثقافة الإسلامية»[2].

غير أن إقبال يعرب عن خشيته من الانبهار والانجرار الأعمى وراء المظاهر: «خوفنا من أن الظاهر الباهر للحضارة الغربية يصدّنا عن الحركة، ويشلّنا عن الوصول إلى الماهية الواقعية لهذه الحضارة»[3].

ويسخر إقبال من مثالية أوربا مؤكدًا أنها لم تدخل واقع الحياة الأوربية ولم تتعدّ الخطابات والتصريحات والعناوين. فليس في ضمير الإنسان الأوربي حبّ للإنسان، وإن ابتدع المذهب الإنسانوي Humanisme، ولات احترام لحقوق الإنسان على الصعيد العملي،

١- ص ١٠، ١١ من الترجمة الفارسية.

٢- ص ١٠، ١١ من الترجمة الفارسية.

٣- ص ١٠، ١١ من الترجمة الفارسية.

و إن تبجّح بلائحة حقوق الإنسان على الصعيد النظري، وليس في ضميرها أيضا إيمان بالحرية والعدالة والمساواة و إن رفع عقيرته مناديًا بها.

«مثالية أوربا لم تدخل الحياة الاجتماعية بشكل سامٍ حيوي، ونتج عن ذلك الإنسان الحائربين الديمقراطيات المتضاربة، وهو يبحث عن ذاته، حيث اتجهت تلك الديمقراطيات نحو استثمار الفقراء لصالح الأغنياء.

صدّقوني أن أوربا تشكل اليوم أكبر عقبة على طريق تقدّم أخلاق البشرية»[1].

ويعتقد إقبال أن المسلمين يمتلكون بين ظهرانيهم بلسم الشفاء لما تعانيه البشرية اليوم من قلق وحيرة وضياع فيقول:

«يمتلك المسلمون أفكارًا ومعتقدات متسامية متكاملة تقوم على أساس الوحي. هذه الأفكار والمعتقدات تنطلق من أعماق الحياة لتضفي على ظواهر الحياة صفة باطنية.

الإنسان المسلم يؤمن بالأساس الروحي للحياة كأمر اعتقادي، وهو على استعداد لأن يبذل روحه رخيصة في سبيل هذا الاعتقاد»[2].

النقطة التي يركز عليها إقبال هي إن الأطروحة السماوية (الإسلام) لها ضمانات تنفيذية ولها القدرة على النفوذ إلى أعماق البشر، لأنها تستند إلى إيمان ديني. فحين يرفع الإسلام شعار الحرية والعدالة والحبّ الإنساني في المجتمع فإنه يتجه إلى النفس الإنسانية

١- إحياء الفكر الديني في الإسلام، ص ٢٠٣، ٢٠٤ من الترجمة الفارسية.

٢- إحياء الفكر الديني في الإسلام، ص ٢٠٣، ٢٠٤ من الترجمة الفارسية.

لاتخاذها ضمانًا لتحقيق أهدافه. أما الأطروحات الأرضية فإنها تفتقد إلى هذا الضمان التنفيذي وتبقى على مستوى الشعارات. من هنا يعتقد إقبال أن البشرية بحاجة إلى ثلاثة أمور:

أولا: إلى تفسيرروحي للعالم، فالعالم في ظل التصورالمادي أعمى فارغ يتحرك حركة عابثة غيرذات هدف، وكل الموجودات في الكون بما فيها الإنسان، في إطارهذه التصور، مخلوقة عبثًا دونما غاية وهدف. بينما التصورالقرآني يرفض هذه النظرة العبثية للعالم بصراحة: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾. فالعالم في التصوّر الإسلامي يقوم على أساس موازين الحق والعدالة ولا يضيع فيه مثقال ذرة من العمل الصالح أو الطالح. ولا يبتعد لحظة عن مدبّره الحكيم الذي ﴿لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ﴾.

ثانيًا: إلى حرية روحية للفرد. وهذه الحرية قادرة على أن تطلق الطاقات الإنسانية الكامنة من عقالها. وتخلق للكائن البشري شخصية متميزة وتنقذه من الطروحات التي تسحق شخصيته وتكبّل طاقاته.

ثالثًا: إلى مبادئ أساسية ذات مفعول عالمي، تدفع المسيرة البشرية نحو التكامل على أساس روحي[1]. ويقصد بذلك المبادئ الإسلامية.

لم يتوقف إقبال طبعًا عند حدّ الهجوم على الحضارة الغربية، ولم يكتف أيضًا باقتراح البديل (الإسلام) في إطاره الكلي العام، بل اتجه إلى قضية أساسية للغاية حين طرح هذا السؤال: هل الإسلام

١- إحياء الفكرالديني، ص ٢٠٣، ٢٠٤ .

الحقيقي موجود اليوم بين المسلمين؟ يجيب هو على هذا السؤال بالقول: إنّ الإسلام موجود بين المسلمين وغير موجود . موجود في المظاهر التي تسود حياة المسلمين، أو بعبارة أخرى موجود على مستوى الشعائر الإسلامية. فالمسلمون يرفعون الأذان بينهم يوميًا، ويتّجهون نحو الصلاة زرافات ووحدانًا، ويدفنون موتاهم حسب الأحكام الإسلامية، ويتسمّون غالبًا بأسماء إسلامية، لكن هؤلاء المسلمين يفتقدون ما يخلق فيهم روحًا إسلامية، فالروح الإسلامية ميتة في المجتمع الإسلامي.

انطلاقًا من هذه المقدمة آمن إقبال بضرورة تجديد الحياة الإسلامية، وسعى على طريق هذا الهدف.

الإسلام لم يمتْ في رأي إقبال بل المسلمون هم الذين ماتوا، وهم بحاجة إلى نفحة قدسية تحييهم وتعيد لهم دورهم الرسالي على الساحة التاريخية.

الإسلام لم يمت لأن كتابه بين ظهراني المسلمين، وسنّة نبيه موجودة، وكلاهما (الكتاب والسنة) يطفحان بالحيوية ويتحدّيان كل عوامل تقادم الزمن واختلاف البيئات. فهما لا ينطويان على شيء مثل الهيئة البطليموسية أو نظرية العناصر الأربعة أو سائر النظريات التي تُنسخ وتتعرض للتغير والتبديل. الإسلام حي بل هو مبعث حياة. والعيب في فكر المسلمين وفي فهمهم الجامد الميت للإسلام.

مَثَلُ المسلمين في تعاملهم مع الإسلام كمثل مزارع وضع بذرة

حية في تربة لا تصلح للإنبات فبقيت البذرة الحية داخل التربة دون أن تنمو وتؤتي أُكُلها. أو كمثل بستاني وضع في الأرض غرسًا بشكل مقلوب بحيث ترتفع جذوره في الهواء وتغوص أغصانه في التربة. هذا الغرس موجود وغيرموجود.

وهنا تجدرالإشارة إلى تشبيه رائع استعمله الإمام أميرالمؤمنين علي ابن أبي طالب (عليه السلام) يصوّرواقع المسلمين اليوم أحسن تصوير إذ قال: «ولُبسَ الإسلام مقلُوبا»[1]. هذا التشبيه يبرزالصورة المشوهة المضحكة للإسلام الممسوخ، ويبين انقلاب الموازين والمظاهر والضمائرفي المجتمع الذي يعيش هذا الإسلام الممسوخ. هذا الإسلام موجود في المجتمع لكنه يفتقد التأثيروالعطاء ويفتقد قدرة الدفع والتحريك والتوعية.

تعامل المسلمين مع الإسلام عامل مهم في حيوية الإسلام، فقد يكون هذا التعامل عميقًا شاملًا، وقد يكون سطحيًا ناقصًا، وقد يكون تعاملًا قشريًا لا يتعدّى المظاهرولا ينفذ إلى اللب.

السؤال الذي طرحه إقبال إذن أساسي للغاية، لأنه يتجه بدقة إلى موضع الداء، ويبعد البحث عن الطريقة التي اعتادها كتّابنا في الاكتفاء بذمّ الحضارة الغربية والثناء على الحضارة الإسلامية ظنًا منهم أنهم قادرون بذلك استمالة العالم نحو المسلمين. كيف يمكن أن نستميل العالم للاقتداء بجسم نصف مشلول؟!

١- نهج البلاغة، الخطبة رقم ١٠٧ .

المفهوم القرآني للإحياء

مرتضى مطهري

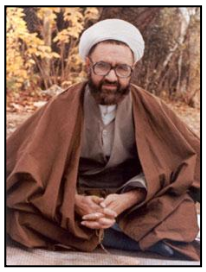

القرآن يتحدث في كثير من آياته عن الحياة ومراتبها النباتية والحيوانية والإنسانية، وسنقتصر في حديثنا على وجهة النظر القرآنية حول الحياة الإنسانية.

القرآن في حديثه عن الحياة الإنسانية يتجاوز المظاهر البيولوجية للحياة كحركة القلب ودوران الدم ونظائرها. فهذه الحياة حيوانية لا تستطيع وحدها أن توضح الإطار الإنساني للحياة، وثمة نوع آخر من الحياة ينبغي أن يتزوّد به الإنسان كي يتمتع بالحياة الإنسانية، وقد يفتقد شخص هذه الحياة وهو يتمتع بكامل مظاهر الحياة البيولوجية. من هنا قال القرآن ﴿لينذر مَنْ كان حيًا﴾. وهذا التعبير القرآني يوحي بتقسيم الناس إلى فئتين: حية وميتة. ويقول إن النداء الإلهي يجد طريقه إلى قلوب الذين لا تزال فيهم بقايا حياة. أما الذين افتقدوا الحياة فلا أثر للإنذار الإلهي عليهم.

القرآن يمثّل للحركة على طريق الله وللحركة على غير طريق الله، فيركّز على خصائص الحياة والنماء في الحركة الأولى، والجدب والموات والضلال في الحركة الثانية فيقول:

﴿يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لاَ تُبْطِلُواْ صَدَقَاتِكُم بِالْمَنِّ وَالأَذَى كَالَّذِي ينفِقُ مَالَهُ رِئَاء النَّاسِ وَلاَ يؤْمِنُ بِاللّهِ وَالْيوْمِ الآخِرِ فَمَثَلُهُ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُ وَابِلٌ فَتَرَكَهُ صَلْدًا لاَّ يقْدِرُونَ عَلَى شَيءٍ مِّمَّا كَسَبُواْ وَاللّهُ لاَ يهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ، وَمَثَلُ الَّذِينَ ينفِقُونَ أَمْوَالَهُمُ ابْتِغَاء مَرْضَاتِ اللّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَينِ فَإِن لَّمْ يصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ وَاللّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾.

ويقول في موضع آخر:

﴿أَوَ مَن كَانَ مَيتًا فَأَحْييناهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ﴾.

الحياة التي يتحدث عنها القرآن هنا ليست بالحياة البيولوجية، بل حياة إنسانية، يخرج الإنسان بها من الظلمات البهيمية إلى نورالهداية الإلهية، ومن ظاهرة الموت التي تجعل الإنسان أرضًا صلدة غيرقابلة لتقبل كلمة الحق، إلى ظاهرة الحياة التي تحوّل الإنسان إلى تربة صالحة لحمل الرسالة الإلهية: ﴿يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يحْييكُمْ﴾.

لكن هذه الاستجابة لا تتحقق فيمن انعدمت فيه كل مظاهر الحياة الإنسانية: ﴿إِنَّكَ لا تُسْمِعُ الْمَوْتَى وَلا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاء إِذَا وَلَّوْا مُدْبِرِينَ﴾.

مظاهرالمجتمع الحي

نحن لا نستطيع أن نفهم طبعًا كنه الحياة الإنسانية ، لأن الحياة

الحيوانية لا تزال عصية الفهم فما بالك بهذه الحياة الأكثر تطورًا وتعقيدًا! غير أننا نستطيع أن نفهمها من خلال تلمّس آثارها.

من هذه الآثار: الوعي والتحرك.

كلّما ازداد وعي المجتمع وروح الحركة والاندفاع فيه كان أقرب إلى الحياة، وكلّما هبط عنده الوعي وخمدت فيه روح التحرك كان أقرب إلى الموت[1].

والآن لنلق نظرة على أوضاعنا الراهنة انطلاقًا من المفهوم السابق لنرى مقدار ما فينا من حياة. هل نحن ننظر بعين الاحترام إلى السكوت أم إلى الحركة؟ والجواب على هذا السؤال مهم للغاية لأن المجتمع كلّما مال إلى السكون يزداد احترامه إلى كل ما هو راكد وساكن.

لا شك أن المنطق السائد بيننا هو منطق احترام الساكن الجامد، وهو مظهر انحطاط المجتمع وموته. أحد الإخوة الظرفاء أطلق على هذا المنطق اسم «منطق الماكنة البخارية».

سبب هذه التسمية يشرحها هو إذ يقول:

١- كلمة «الحي» ترد في القرآن لتفصح غالبًا عن معنى العلم والقوة. فالقرآن يصف الله بالحي: ﴿الله لا إله الا هو الحي القيوم﴾. و﴿الحي الذي لا يموت﴾. والحياة هنا لا تعني طبعًا الحياة البيولوجية بل تعني العلم المطلق والقوة المطلقة.

هذا المفهوم نستطيع أن نتخذه معيارًا لفهم ماهو من الإسلام وماهو دخيل عليه. كلّ ما من شأنه أن يقف بوجه تصاعد وعي المسلمين وقدرتهم وقوتهم فليس من الإسلام بشيء، لأن الإسلام دين الحياة، ودين الحياة لا ينسجم مع الجهل والعجز والضعف.

في أيام الصبا كنت أذهب إلى محطة القطار (وكانت السكك الحديدية حديثة التأسيس في إيران آنذاك) فأرى القطار واقفًا والأطفال مجتمعون حوله ينظرون إليه باحترام و إجلال. ويبقى المتفرجون الصغار على حالتهم هذه حتى يبدأ القطار بالحركة، وما إن يتحرك حتى يسارع الأطفال إلى التقاط حجر ليرموا به القطار. وهكذا يزداد رشق القطار بالحجارة كلما ازدادت سرعته!!

لقد كنت أعجب من هذه الظاهرة وأسائل نفسي لماذا يميل هؤلاء الأطفال إلى احترام القطار مادام واقفًا؟ ولماذا ينعدم هذا الاحترام عندما يشرع القطار بالتحرك؟!

عندما كبرت ودخلت المجتمع اكتشفت اللغز، ألفيت أن هذه الظاهرة قانون عام يسود كل المجتمعات التي افتقدت الحياة. كل شيء في نظر هذا المجتمع يحظى بالاحترام والتجليل مادام ساكنًا، فإذا تحرّك يتخلّى عنه الناس، بل أكثر من ذلك يلقمونه بحجر من كل حَدَب وصوب. أما المجتمع الحي فلا يحترم إلا الوثّاب المتحرك والمتيقّظ.

الأثر الآخر من آثار الحياة في المجتمع الترابط والتضامن بين أفراده. هذا الترابط يزداد كلما كانت روح الحياة نابضة أكثر في المجتمع. غير أن هذا الترابط يتجه نحو الوهن والضعف مع اتجاه المجتمع نحو الموت.

هذا المؤشر هو الآخر يعيننا على فهم مقدار ما في المجتمع من

حياة، ويمنحنا معيارًا لفهم وضع عالمنا الإسلامي المعاصر المفعم بالنزاعات والحروب والاختلافات الداخلية، والمنقسم على نفسه إلى أجزاء يتجاذبها أعداء الإسلام ويساومون عليها. هذا المعيار يوضّح لنا بجلاء أن المجتمع الإسلامي بشكل عام مجتمع ميت.

دعوة الإسلام تتجه أوّل ما تتجه إلى إيجاد المجتمع المترابط المتكافل المتضامن، ومن هنا فهي دعوة إلى الحياة: ﴿يا أَيهَا الَّذِينَ آمَنُواْ اسْتَجِيبُواْ للّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُم لِمَا يحْييكُمْ﴾.

والمجتمع الإسلامي الواقعي مجتمع حي لأن أفراده مرتبطون مع بعضهم ارتباطًا عضويًا وثيقًا:

«مثل المؤمنين في توادّهم وتراحمهم كمثل الجسدَ إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجَسد بالسهر والحُمّى».

هذه الحمّى التي تظهر في البدن ليست عملية مواساة فحسب بل هي عملية نفير سائر الأعضاء لمواجهة العدو الذي هاجم العضو المصاب ولترميم ما أصاب هذا العضو من أضرار.

أين المسلمون اليوم من هذا الترابط العضوي؟! هل العالم الإسلامي ينهض اليوم بأجمعه إذا تعرّض أحد أجزائه لعدوان؟!

هذه الظاهرة السلبية ليست بجديدة على عالمنا الإسلامي، لأن الموت بدأ يدبّ في جسد هذه الأمة منذ أن استشرى فيها الانحراف، وبلغ الأمر بها أن اقتطع أعداء الإسلام جزءًا عزيزًا من جسدها ومركزًا حضاريًا عظيمًا من مراكزها وهو «الأندلس»، فلم يظهر

على سائرالأجزاء ردّ فعل حياتي، لأن سائرالأجزاء كانت منغمسة في صراعات داخلية بما في ذلك الصراعات الطائفية بين السنة والشيعة.

حال المسلمين اليوم من مسألة فلسطين تأكيد آخرعلى هذه الظاهرة. هل المسلمون المعاصرون على مستوى المسؤولية من هذه القضية؟ هل إن موقفهم من العدوان الإسرائيلي يجسّد وصف رسول الله للجماعة المؤمنة؟! الجواب واضح طبعًا.

الرسول القائد (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول في موضع آخر: «من سمعَ مسلمًا ينادي يا للمسلمين فلم يجبه فليس بمسلم»[1].

هذا الحديث الشريف يجري مجرى الحديث السابق في التأكيد على ظاهرة الترابط العضوي بين المجتمع المسلم الحي. إنه ينكأ جراح كل إنسان مسلم واع يرى أجزاء العالم الإسلامي تتعرض لأبشع أنواع المجازرالوحشية ولأفظع انتهاكات الحرمات الإنسانية، دون أن تظهرعلى المسلمين آثارالمواساة والتجاوب العاطفي والعملي، بل الذي يزداد ظهورًا فيهم اتجاههم نحوالمزيد من الشقاق والنفاق والعداء!!.

من المظاهرالأخرى للمجتمع الحي تكريم شخصياته الفكرية، وأقصد الشخصيات الحية التي تعيش في المجتمع بالدرجة الأولى، لأن تكريم الأموات قد لا ينمّ عن ظاهرة حياة. أحد الأصدقاء طرح

١- أصول الكافي، ج ٣، ص ٢٣٩ .

عليّ سؤالًا طريفًا قال فيه: أليس تكريم إقبال من مظاهر التقرّب من الأموات؟ هذا الصديق لا يعترض طبعًا على هذا التكريم، بل يقصد أن التكريم ينبغي أن يتجه أولًا إلى الشخصيات الفكرية الحية. وكم بين ظهرانينا اليوم من هذه الشخصيات التي تستحق كل تكريم، وخير مثال على ذلك العلامة الكبير السيد محمد حسين الطباطبائي[1]. هذا الرجل يستحق كل تكريم لجمعه كل الخصال التي ينبغي أن يتصف بها إنسان مسلم مفكر ملتزم.

فهو أولًا مثال الورع والتقوى، وقضى عمره وهو يطوي مراحل تهذيب النفس والارتقاء على سلّم الكمال الإنساني. لقد انتهلتُ سنوات طوال من فيض علمه وتربيته ولازلت دؤوبًا على التزوّد منه.

وهو أيضًا عالم مفكر سبر أغوار العلوم الإسلامية بفطنة وذكاء وقدّم للمسلمين عطاءًا فكريًا ثرًا على رأسه مجلدات *الميزان في تفسير القرآن* وهو أفضل تفسير معاصر للقرآن، وأستطيع أن أدّعي أنه أفضل تفسير كُتب حتى الآن للقرآن منذ عصر صدر الإسلام حتى يومنا هذا ، مع الاعتراف بأهمية التفاسير الأخرى ومع التأكيد على أن كلام الله لا يحيطه تفسير مهما شمل واتّسع.

كما أنه الرجل الذي يعيش آلام الأمة وهمومها وقضاياها ولا أدلّ

١- هذه المحاضرات ألقيت يوم كان العلامة الطباطبائي حيًا، وفي السبعين من عمره، لكنه رحل عنّا .تغمده الله برحمته .في الثامن عشر من شهر محرم عام ١٤٠٢، ودفن في مدينة "قم"

على ذلك من موقفه من القضية الفلسطينية وتصدّيه لجمع تبرعات مالية للإخوة الفلسطينيين.

هذا الرجل تجاوزت شهرته إيران بل تجاوزت العالم الإسلامي، والعلماء المسلمون يتوافدون عليه من كل حَدَب وصوب، وأخيرًا زاره الأستاذ علال الفاسي من المغرب وأعرب الأستاذ الفاسي عقب اللقاء عن إعجابه الكبير بهذه الشخصية الفذّة. المستشرقون الأوربيون هم أيضًا على علم بمكانة هذا المفكر الإسلامي الكبير.

إنها لفريضة علينا أن نكرّم السيد الطباطبائي ونشيد بمكانته ونعطيه ما يستحقّه من الاهتمام والتقدير.

الصفة الأخرى للمجتمع الحي ارتباطه بتاريخه الثوري، فالارتباط بهذا التاريخ وبالأفراد الذين صنعوه بدمهم يؤكّد أنّ المجتمع حي أبيّ الضيم لا ينثني أمام ما يواجهه من تحدّيات وصعاب.

ولهذا علّمنا أئمة آل البيت أن نخاطب الشهداء بقولنا: «يا ليتنا كنّا معكم فنفوز فوزًا عظيمًا» علّمونا أن نحيي ذكرى الشهيد، ونبكي عليه، ونعيش أهدافه وحركته واندفاعه، علّمنا سيد الشهداء الحسين بن علي عليه السلام أنه: «كل يوم عاشوراء وكل أرض كربلاء».

إنّ مفاهيم إحياء ذكرى شهداء التاريخ الإسلامي، وسيد الشهداء على الخصوص قد شُوّهت إلى حدّ كبير مع الأسف، ولذلك فقدت عطاءها المطلوب. ولابدّ من إعادة نظر في تاريخ شهداء الإسلام وفي المقدمة تاريخ سيد الشهداء، لنستلهم منه ما يعيننا على مواصلة طريقهم السامي العظيم.

أسباب تخلّف المسلمين

مرتضى مطهري

علينا أن نبحث في أسباب هذا التخلّف في إطار المفاهيم الممسوخة المشوهة السائدة بين المسلمين. لأن الانحراف عن الإسلام وبالتالي اتجاه المسلمين إلى مظاهر الموت رافقه مسخ لمفاهيم الإسلام الأصيلة حتى عادت نظرة المسلمين إلى الإسلام نظرة باهتة ميتة لا حراك فيها منذ خمسمائة عام، كما يقول الدكتور محمد إقبال. من هنا كانت الخطوة الأولى على طريق الإحياء تتمثل في تصحيح المفاهيم السائدة في أذهاننا. وفيما يلي نعالج بعض هذه المفاهيم:

مفهوم العمل

الإسلام دين العمل، هذه الحقيقة تبدو واضحة من خلال نصوص القرآن وسنة المعصومين. هذه النصوص تؤكد للبشرية ارتباط مصيرها بعملها في إطار فكري واقعي منطقي منسجم مع قانون الخليقة.

القرآن يتحدث عن دور العمل فيقول: ﴿وَأَن لَّيسَ لِلإِنسَانِ إِلا مَا سَعَى﴾.

ويقول: ﴿فَمَن يعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيرًا يرَهُ، وَمَن يعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يرَهُ﴾.

هذه التعليمات من أهم المؤثرات اللازمة لحياة الأمة وحركتها. فحين تسود في الأمة ذهنية ارتباط مصيرها بعملها، تسعى إلى الاعتماد على نفسها وعلى طاقاتها، وهذا ما يؤدّي إلى خلق الديناميكية اللازمة لحياة الأمة. هذه التعليمات تلقّاها الجيل المسلم الأول من منبع الوحي فتغلغلت في أعماقه فكرة ارتباط مصيره بعمله الخالص لوجه الله، وانبثقت في وجدانه ثقة عجيبة بالنفس، واندفع إلى ساحات الجهاد لا يهاب هيل الأعداء وهيلمانهم، ولا يخشى القُوى الكبرى المسيطرة آنذاك على العالم.

هذه التعاليم السامية اعترتها بمرور الزمن أنواع الشوائب ومُنيت بألوان الانحرافات، وتفاقم الانحراف بمرور الزمن حتى فشت بين المسلمين أفكار تستهين بالعمل، وتركت الأفكار الواقعية المنطقية بشأن السعادة مكانها لأفكار وهمية خيالية بعيدة عن المنطق والواقع.

نماذج من انحراف مفهوم العمل

من هذه الأفكار الوهمية فكرة «الحظ» التي ظهرت لتعبّر عن غياب جميع قوانين الكون وسننه في الذهنية السائدة. وهذه الفكرة انعكست على الأدب قديمه وحديثه[1].

١- يستشهد الأستاذ الشهيد بأمثلة من الأدب الفارسي تركز على فكرة الحظ وتربط مصير الإنسان بهذه الفكرة. ولها في الادب العربي نظائر كثيرة منها قول الشاعر:

واضح أن الحظ فكرة لا تقوم على أساس أي منطق علمي أو فلسفي أو قرآني. لكنها سرت في مجتمعاتنا إلى كل مواقف حياتنا الصغيرة والكبيرة.

نموذج آخر من الانحرافات الفكرية في هذا المجال: النظرة الممسوخة إلى نتيجة صراع الحق مع الباطل[1]. الحديث يدور في مجتمعاتنا حول عدم إمكان انتصار الحق، وعدم إمكان انتصار الدعوة الملتزمة بقيم الصدق والعدل، وعدم إمكان الإنسان الحصول على مكاسب مادّية إن كان مقيدًا بموازين الصدق والإنصاف!! وهذا اللون من التفكير يتناقض تمامًا مع المدرسة الإسلامية التي ركزت على النظرة التفاؤلية لمسيرة العالم.

القرآن يشير في مواضع عديدة إلى أن نظام الكون هو النظام الأحسن، ولا يمكن تصور نظام أحسن منه. يقول في آية: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيءٍ خَلَقَهُ﴾ وفي آية أخرى يقول على لسان موسى بن

إنّ حظّي كدقيق ... بين شوك نثروه
ثم قالوا لحفاة ... يوم ريح اجمعوه
صعب الأمر عليهم ... قال قوم اتركوه!
إنّ من أشقاه ربّي ... كيف أنتم تسعدوه؟!

(المترجم).

١- في بعض مجتمعاتنا العربية مثل سائد يقول: «الظالم سالم» يحكي هذه الذهنية المشككة في قدرة قيم الحق والعدل والصدق على الانتصار في معترك الصراع. (المترجم).

عمران: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾.

والإنسان في نطاق هذا النظام موجود مختار، بمقدوره أن يسير وفق نظام الخليقة الفطري، وبإمكانه أيضًا أن ينحرف يمنة ويسرة.

وهذا الاختيار واحد من مظاهر هذا النظام الأحسن، حيث الإنسان فيه كائن مسؤول وحامل للأمانة وخلاق.

هذا الاختيار يستتبعه انحراف مجموعة من الناس عن الصراط المستقيم، لكن نظام الخليقة بمجموعه يسير وفق معايير الحق والعدل. وأمام هذا الانحراف تتحمل المجموعة الصالحة مسؤولية مقارعة المنحرفين. وهذه المجموعة الصالحة السائرة على طريق النظام الكوني والمكافحة من أجل الحق والعدل تحظى بإسناد ربّ العالمين. فنظام الكون يسند السائرين على طريق الحقّ، وليس للباطل سوى جولة سرعان ما يتراجع بعدها أمام الحق. القرآن الكريم يمثل لصراع الحق والباطل أجمل تمثيل فيقول: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاء مَاء فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيلُ زَبَدًا رَّابِيا وَمِمَّا يوقِدُونَ عَلَيهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاء حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يضْرِبُ اللّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيذْهَبُ جُفَاء وَأَمَّا مَا ينفَعُ النَّاسَ فَيمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يضْرِبُ اللّهُ الأَمْثَالَ﴾.

فالزبد الذي يمثّل الباطل يذهب جفاء أمام الحق. وهذا هو قانون الخليقة الذي لا يتخلّف بينما تسرى بيننا أحاديث واهية مشككة في جدوى الكفاح من أجل الحق والعدل وعلى طريق الحقيقة والاستقامة.

نحن لم نُقدِم مرة واحدة على الدخول في تجربة عملية كفاحية، ومع ذلك نقذف الخليقة بالعبثية والبطلان.

«انتشار فكرة المجدّدين» مظهر آخر من انحراف أفكار المسلمين بشأن مفهوم العمل. هذه الفكرة تستمدّ جذورها من حديث ذي سند واه يقول: «إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدّد لها دينها».

هذه الفكرة راجت في الفكرين السني والشيعي غير أنها لم تدخل الوسط الشيعي قبل القرن الحادي عشر، ففي هذا القرن كتب الشيخ البهائي رضوان الله عليه عن الكليني، ووصفه بأنه مجدد المذهب في رأس القرن الثالث، مستعيرًا هذا الوصف مما أشيع في الفكر السني. بعد ذلك أطلق على المجلسي أنه مجدد المذهب في رأس القرن الثاني عشر، والوحيد البهبهاني مجدد المذهب في رأس القرن الثالث عشر، والميرزا الشيرازي مجدّد المذهب على رأس القرن الرابع عشر الهجري.

الغريب في هذه الفكرة أن النوابغ الذين ظهروا في أواسط القرون الهجرية لم يعتبروا مجدّدين!! كل ذنبهم أنهم لم يظهروا على رأس القرن كالشيخ الطوسي مثلا. والأغرب من ذلك أن الباحثين عن المجدّدين لم يستثنوا عتاة الملوك من حساباتهم فاعتبروا نادرشاه مثلًا من المجددين!!

هذه الفكرة تتعارض تعارضًا تامًا مع مبدأ التغيير الذي تقرره الآية الكريمة: ﴿إِنَّ اللّهَ لاَ يغَيرُمَا بِقَوْمٍ حَتَّى يغَيرُواْ مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾.

هذا المبدأ يربط كل تغيير في المجتمع الإنساني بتغيير المحتوى الداخلي لأفراد ذلك المجتمع. تجديد الحياة الاجتماعية .انطلاقًا من مفهوم هذه الآية .لا يتم إلاّ حينما يكون أفراد الأمة مستعدين لمثل هذا التغيير. بينما فكرة المجددين تعفي الأمة من هذه المسؤولية، وتلقيها على عاتق فرد أو أفراد معينين، وبهذا الترتيب تمسخ أعظم سنّة قرآنية حركية عملية.

فكرة المجددين استغلها الطامعون المستغلون ليثيروا الفتن والمجازر، وليصرفوا الأمة عن التفكير بنواقصها ومشاكلها وتخلّفها وانحرافها.

جذور انحراف مفهوم العمل

يحدثنا التاريخ أنّ انحراف مفهوم العمل في الإسلام بدأ منذ ظهور فكرة «الإرجاء» على يد أناس غارقين في أوحال الرذيلة. هذه الفكرة التي تبنّتها السلطة الحاكمة في العهد الأموي وراحت تفرّق بين «الإيمان» و«العمل»، وتؤكد على أهمية ما يضمره الإنسان في قلبه من إيمان، وتستهين بالعمل[1].

١- قالت المرجئة: «لا تضر مع الإيمان معصية، كما لا تنفع مع الكفر طاعة» وقالوا: «إن الإيمان الاعتقاد بالقلب و إن أعلن الكفر بلسانه، وعبد الأوثان، ولزم اليهودية والنصرانية في دار الإسلام، ومات على ذلك فهو مؤمن كامل الإيمان عندا لله عزوجل، ولي لله عزوجل، من أهل الجنة»!! (ابن حزم، الفصل في الملل والنحل/ ٤/٢٠٤).

مدرسة أهل البيت تقف بوجه التحريف

وقف أئمة آل البيت (عليهم السلام) بوجه كل انحراف ظهر بعد وفاة القائد الأول (صلى الله عليه وآله وسلم) بما في ذلك انحرافات المرجئة، ومفاهيم انفصال الإيمان عن العمل والاستهانة بالعمل.

الأحاديث الكثيرة التي وصلتنا عن هؤلاء الأئمة في هذا المجال تؤكد أنهم خاضوا خلال قرون متوالية حربًا فكرية هدفها إحباط محاولات المسخ والتشويه، والتأكيد على أهمية العمل، ودفع المسلمين نحو الالتزام العملي بالخط الإسلامي.

وهذه طائفة من تلك الأحاديث[1]:

عن الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام): «و إني لمن قوم لا تأخذهم في الله لومة لائم، سيماهم سيماء الصدّيقين، وكلامهم كلام الأبرار، عمّار الليل، ومنار النهار. لا يستكبرون، ولا يعلون، ولا يغلّون، ولا يفسدون، قلوبهم في الجنان، وأجسادهم في العمل»[2].

وعنه: «ألا و إنّ اليوم المضمار، وغدًا السباق.. ألا و إنكم في أيام

١- في هذه الفقرة من محاضرة الأستاذ الشهيد شروح بالفارسية للاحاديث تتخللها استطرادات كثيرة لا تخلو منها عادة كل محاضرة ارتجالية، كما أن الأحاديث التي يرويها المحاضر في هذا المجال خالية من ذكر المصادر وهذا ما دفعني إلى إجراء مزيد من التهذيب على هذا الموضوع، والرجوع إلى أحاديث أئمة آل البيت في هذا المجال لاستخراجها من مصادرها، مستفيدًا من الكتاب القيم «الحياة» للحكيميين. (المترجم).

٢- نهج البلاغة/ ٧١٨.

أمل، من ورائه أجل، فمن عمل في أيام أمله، قبل حضور أجله، فقد نفعه عمله، ولم يضرره أجله»[1].

وعنه: «المؤمن بعمله»[2].

وعنه: «المرء لا يصحبه إلاّ العمل»[3].

وعنه : «العلم يرشدك، والعمل يبلغ بك الغاية»[4].

وسئل علي (عليه السلام): «الإيمان قول وعمل أم قول بلا عمل؟ فقال: الإيمان تصديق بالجنان، و إقرار باللسان، وعمل بالأركان. وهو عمل كله»[5].

وعنه أيضًا: «لا تكن ممن يرجو الآخرة بغير عمل، ويرجو التوبة بطول الأمل، يقول في الدنيا قول الزاهدين، ويعمل فيها عمل الراغبين.. ثم يبالغ في المسألة حين يسأل، ويقصّر في العمل، فهو بالقول مدلّ، ومن العمل مقلّ، يرجو نفع عمل مالم يعمله»[6].

وعن الإمام محمد بن علي الباقر (عليه السلام): «إن ولايتنا لا تدرك إلا بالعمل»[7].

١- نهج البلاغية/ ٩٨.
٢- غرر الحكم/ ١٤.
٣- غرر الحكم/ ٢٣.
٤- غرر الحكم/ ٥٣.
٥- البحار ٦٩/ ٧٤.
٦- تحف العقول/ ١١٠.
٧- الكافي ٢/ ٧٥.

وعنه: «لا يقبل عمل إلا بمعرفة. ولا معرفة إلاّ بعمل»[1].

سئل أبو جعفر(الباقر) عن اللعب بالشطرنج فقال: «إنّ المؤمن لفي شغل عن اللعب»[2].

وعن الباقرأيضًا: «إياك والتسويف، فإنه بحر يغرق فيه الهلكى»[3].

وعن الإمام جعفربن محمد الصادق (عليه السلام): «الإيمان عمل كلّه»[4].

وعنه: «الإيمان لا يكون إلا بعمل، والعمل منه، ولا يثبت الإيمان إلا بعمل»[5].

وعنه أيضا: «ملعون، ملعون من قال: الإيمان قول بلا عمل»[6].

وعنه: «يا ابن جندب... رحم الله قومًا كانوا سراجًا ومنارًا، كانوا دعاة إلينا بأعمالهم ومجهود طاقاتهم»[7].

وعنه: «كونوا دعاة الناس بأعمالكم، ولا تكونوا دعاة بألسنتكم»[8].

١- تحف العقول/ ٢١٥.
٢- الخصال ٦٢/٢.
٣- البحار١٦٤/٧٨.
٤- الكافي ٣٤/٢.
٥- الوسائل ١٢٧/٦.
٦- البحار١٩/٦٩.
٧- تحف العقول/ ٢٢١.
٨- الكافي ٧٨/٢.

وعن الصادق أيضا: «من استوى يوماه فهو مغبون، ومن كانت آخر يوميه خيرهما فهو مغبوط، ومن كان آخر يوميه شرّهما فهو ملعون، ومن لم ير الزيادة في نفسه فهو إلى النقصان، ومن كان إلى النقصان، فالموت خير له من الحياة»[1].

كل هذا التأكيد على مفهوم العمل يوضّح مَعلَما هامًا من معالم مدرسة آل البيت هو الحركة الدائبة على خطّ الإسلام التكاملي، ونبذ كل انفصال بين الإيمان والعمل، وجعل العمل معيارًا لتقويم خلوص الإنسان وقربه من الله.

نحن اليوم اكتفينا مع الأسف بالانتساب إلى مدرسة آل بيت رسول الله (ص) على مستوى القول لا العمل.

الإسلام أكد أن الانتساب وحده، أيًا كان شكله، لا يغني الإنسان عن العمل، ولا يمكن أن يشكل نقطة إيجابية في صفحة أعمال الإنسان إن لم يرافقه التزام عملي.

القرآن يدين أولئك الذين زعموا أن لهم عند الله قرابة وزلفى، وأنهم مستثنون من العذاب الإلهي:

﴿وَقَالُواْ لَن تَمَسَّنَا النَّارُ إِلاَّ أَيامًا مَّعْدُودَةً قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ اللّهِ عَهْدًا فَلَن يخْلِفَ اللّهُ عَهْدَهُ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى اللّهِ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾؟!

﴿بَلَى مَن كَسَبَ سَيئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ فَأُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

١- الوسائل ١١/٣٧٦.

﴿وَالَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾.

الإسلام يرفض أن تكون وشيجة القرابة شفيعًا للإنسان. يتحدث القرآن عن نوح(ع) أنه قال لرب العالمين حين رأى قرب هلاك ابنه: ﴿رَبِّ إِنَّ ابنِي مِنْ أَهْلِي﴾.

فيجيبه الله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَيسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيرُ صَالِحٍ﴾.

وعن الإمام الصادق (ع) لما فتح رسول الله (ص) مكة، قام على الصفا فقال: «يا بني هاشم! يا بني عبدالمطلب إني رسول الله إليكم، و إني شفيق عليكم. لا تقولوا: إنّ محمدًا منّا. فو الله ما أوليائي منكم ولا من غيركم إلا المتقون.. ألا و إني قد أعذرت فيما بيني وبينكم، وفيما بين الله عزوجل وبينكم، و إنّ لي عملي ولكم عملكم»[1].

وروي أن رسول الله(ص) قال لبضعته فاطمة الزهراء (عليها السلام): «يا فاطمة اعملي بنفسك إني لا أغني عنك من الله شيئًا».

وعن الإمام علي بن موسى الرضا (عليهم السلام): «أنه ليس بين الله وبين أحد قرابة. ولا تنال ولاية الله إلا بالطاعة. ولقد قال رسول الله لبني عبد المطلب: إيتوني بأعمالكم لا بأحسابكم وأنسابكم. قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَينَهُمْ يوْمَئِذٍ وَلا يتَسَاءلُونَ، فَمَن ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ، وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾».

١- البحار/ ٩٦ / ٢٣٣ .

مفهوم التوكل

التوكل من المفاهيم التربوية الإسلامية السامية. وهو مثل سائر مفاهيم الإسلام دقيق وحسّاس وذو حدّين. يمكن أن تكون له أعظم الآثارالإيجابية على الصعيدين الفردي والاجتماعي، إن فُهم بالشكل الصحيح. ومن الممكن أن ينقلب هذا المفهوم إلى عامل مثبّط للهمم والعزائم إن شُوّه مفهومه الإسلامي الصحيح.

المفهوم القرآني للتوكل ينبض بالزخم والدفع والحياة، ويزيل عوامل التردّد والتراجع والانهزام والخوف من النفس الإنسانية، ومتى ما أراد القرآن أن يزيل عوامل الضعف من المحتوى الداخلي للفئة المسلمة ويقوّي عزيمتها و إرادتها وصمودها يطرح مفهوم التوكل:

﴿وَلَنَصْبِرَنَّ عَلَى مَا آذَيتُمُونَا وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾.

﴿إِنَّمَا النَّجْوَى مِنَ الشَّيطَانِ لِيحْزُنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَلَيسَ بِضَارِّهِمْ شَيئًا إِلا بِإِذْنِ اللهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾.

﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللهِ مِنَ الشَّيطَانِ الرَّجِيمِ، إِنَّهُ لَيسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَلَى رَبِّهِمْ يتَوَكَّلُونَ﴾.

هذا المفهوم الحيوي للتوكل تبدّل مع الأسف بين المسلمين اليوم إلى تواكل وتقاعس عن العمل والاندفاع.

الزهد

الزهد في اللغة ترك الشيء والرغبة عنه. وفي الاصطلاح يطلق

على ترك الإنسان لشيء يرغب فيه رغبة طبيعية. أي إنّ صفة الزاهد لا تطلق على المريض المُعرض عن تناول الطعام ولا على العنّين المُعرض عن اللذة الجنسية.

الزهد من المفاهيم الإسلامية السامية البنّاءة التي انحرفت في أذهان المسلمين، ولعلّ الانحراف في مفهوم الزهد سرى إلى المسلمين من المسيحية. فالمسيحية فرّقت بين العمل الدنيوي والعمل الأخروي، واعتبرت كل ممارسة عملية للإنسان مع الطبيعة والحياة عملًا دنيويًا، بينما أطلقت على الطقوس المعزولة عن كل ممارسة حياتية اسم العمل الأخروي أو العبادة. وها هو«المنجد» بين أيدينا يعبّر عن هذه النظرة المسيحية إذ يقول: زَهَدَ في الدنيا، أي تخلّى عنها للعبادة. وتزهّدَ: تَركَ الدنيا للعبادة.

هذا المفهوم المنحرف عن الزهد ليس بجديد على المدرسة المسيحية، فقد ظهر فيها يوم ظهرت فيها الرهبانية التي قال عنها القرآن الكريم: ﴿ورهبانية ابتدعوها﴾. والإسلام رفض هذه الرهبانية حين وصفها القرآن الكريم بأنها بدعة، وقال عنها رسول الله(ص): «لا رهبانية في الإسلام».

الإسلام يرفض أي انفصال بين العمل الدنيوي والأخروي، ويؤطر كل نشاطات الإنسان الحياتية بإطار ديني، ويعتبرها عبادة وعملًا أخرويًا، إن كان فاعلها يبتغي منها رضا الله.

القدرة الاجتماعية والاقتصادية في يد الإنسان المسلم وسيلة لتحقيق مهمة خلافة الله على وجه الأرض لا وسيلة لاستثمار الآخرين

واستضعافهم يقول سبحانه على لسان يوسف: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَآئِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾.

ويوسف يستهدف من هذه المسؤولية على خزائن مصرأن يؤدّي مسؤوليته الاقتصادية في الحياة، ولا يريد أن يستغل هذه القدرة لمطامعه وأهوائه. وهكذا الإنسان الإلهي يسخّرطاقاته في سبيل الصالح العام، ويستثمر كل قدراته على طريق أداء مسؤوليته الإلهية، بل عليه أن يحصل على القدرة اللازمة لأداء هذه المسؤولية.

علماء الإسلام أفتوا بحرمة الخدمة في جهازالحاكم الجائر، لكنهم أفتوا أيضًا بجوازتولّي منصب في هذا الجهاز إن كان الهدف إنقاذ المظلومين وخدمة الناس، بل أفتى بعضهم باستحباب ذلك وبوجوبه.

وعلى المستوى الاجتماعي، أوجب الإسلام ارتفاع المجتمع المسلم في قوّته إلى مستوى يبعث الرهبة في قلوب أعداء الكيان الإسلامي: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدْوَّ اللّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾.

الزهد في الإسلام لا يعني على الإطلاق الانفصال عن الحياة، والابتعاد عن كسب القدرة اللازمة لأداء المسؤوليات الإلهية على ظهر الأرض، بل يعنى الارتفاع عن الانشداد البهيمي بالأرض، والترفّع عن ممارسة القدرة في سبيل الاستثمار والاستضعاف، يعني بعبارة أخرى تحوّل الممارسات الحياتية إلى وسيلة للارتقاء على طريق المثل الأعلى الحقّ. ومن هنا تصبح الدنيا عند الإنسان الزاهد وسيلة لاغاية. لا

يحس بالفشل والانكسار إن فقد متاعها، ولا ينبهر بها ولا يقع في أسرها إن انفتحت أمامه كنوزها.

وهذا ما أراده أمير المؤمنين علي (عليه السلام) إذ قال: «الزهد بين حكمتين في القرآن: ﴿لِكَيلا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ﴾».

لذات الدنيا

تكررت في النصوص القديمة عند الحديث عن الزهد عبارة الإعراض عن لذات الدنيا والإعراض عن طيبات الدنيا.

ابن سينا يقول في النمط التاسع من الإشارات: المعرض عن متاع الدنيا وطيباتها يسمّى زاهدًا.

مثل هذه العبارات توحي أن الإسلام يقرر نوعين من اللذات: الدنيوية والأخروية، وتوحي أن الإنسان مخير أمام واحد من هذين النوعين من اللذات، إما الدنيوية و إما الأخروية. لكن هذا التصوّر عن اللذة مرفوض في الإسلام.

الإمام علي (عليه السلام) يقول:

«إنّ المتقين ذهبوا بعاجل الدنيا وآجل الآخرة، فشاركوا أهل الدنيا في دنياهم ولم يشاركوا أهل الدنيا في آخرتهم، سكنوا الدنيا بأفضل ما سُكنت، وأكلوها بأفضل ما أُكلت».

أي إن الإنسان المسلم يتمتع بلذات الدنيا كما يتمتع غيره، لكن

هذا التمتع مؤطّر بما فرضه الله من حدود، ومترفّع عن الانشداد البهيمي بالأرض والمتاع. أي إنه بعبارة أخرى يبتعد عمّا حرّم الله.

وهنا تجدر الإشارة إلى أن القرآن يذهب إلى أن اللذة الحقيقية تكمن فيما أحلّ الله، وليس ثمة لذّة واقعية فيما حرّم الله وإن خالها الإنسان أنها لذّة. يقول تعالى: ﴿وَيحِلُّ لَهُمُ الطَّيبَاتِ وَيحَرّمُ عَلَيهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾.

فما حرّم الله ليس بلذّة بل هو الوبال والخبيث بعينه، ولم يحرّم تعالى على عباده شيئًا من الطيبات الحقيقة: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالْطَّيبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾، ﴿يا أَيهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا﴾.

ليس هناك لذّة دينية إذن تحرم الإنسان من لذّات الآخرة، بل هي المحرّمات التي يخال مرتكبها أنها لذّة وما هي بلذّة.

وليست هناك لذّة محرّمة مازال المتمتع بها وقّافًا عند حدود الله، ومنشدًا إلى خط الدين التكاملي المتسامي.

أهداف الزهد في الإسلام

الإسلام يحث الإنسان على الزهد تحقيقًا للأهداف التالية:

١.الإيثار: فمهمة الدين تتمثل في حلّ المشكلة الاجتماعية الناتجة عن تعارض المصلحة الفردية مع المصلحة الاجتماعية. والإسلام يربّي أبناءه تربية ينحلّ معها هذا التعارض، بل ويصبح الفرد المسلم يجد

لذّته في التضحية بلذائذه من أجل مصلحة الآخرين. يحرم نفسه من الملبس والمأكل والمشرب كي يتمتع بها الآخرون، ويحرم نفسه من النوم والراحة كي يسعد الآخرون.

صور الإيثار التي يذكرها لنا القرآن وكتب التاريخ عن الرعيل الأول من المسلمين تؤكد قدرة الإسلام على خلق الإنسان المتفاني في سبيل الآخرين.

سورة «هل أتى» تخلّد واحدة من تلك الصور، حيث تتحدث عن إيثار أمير المؤمنين علي وأهل بيته الكرام، وتشير إلى تقديم ما يملكونه من طعام إلى مسكين ليلة و إلى يتيم في الليلة التالية و إلى أسير في الليلة الثالثة: ﴿وَيُطْعِمُونَ الطَّعَامَ عَلَى حُبِّهِ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا، إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللَّهِ لا نُرِيدُ مِنكُمْ جَزَاء وَلا شُكُورًا﴾.

الإسلام حثّ على هذا الزهد في متاع الحياة الدنيا ورغّب فيه لأنه تربية للإنسان على طريق السموّ والتكامل، ومدح الصفوة المؤمنة من الأنصار التي جسّدت أروع صور الإيثار في المدينة، فقال تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾.

٢- **المواساة:** الإسلام يربّي أفراد المجتمع على الاشتراك في العواطف والأحاسيس، ويصير منهم جسدًا واحدًا إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمّى.

من هنا لا يمكن أن نتصور في المجتمع الإسلامي وجود فئة معدمة وفئة مترفة. لأن روح المواساة التي يخلقها الإسلام في المجتمع

تأبى على المتمكنين أن يتركوا المعوزين في فاقتهم وفقرهم. وهنا يأتي دورالزهد ليخلق روح التكافل الاجتماعي، وليدفع أفراد المجتمع الإسلامي إلى الأخذ بيد الضعفاء و إزالة ظاهرة الفقرمن المجتمع أو لإزالة ظاهرة التفاوت الفاحش في مستوى المعيشة.

الإسلام يعيرأهمية كبرى لزهد الحاكم الإسلامي؛ لأن هذا الحاكم بحاجة إلى روح المواساة أكثرمن غيره، ولأن الزهد في الحاكم يخلق في المجتمع معاييرلتقويم الأفراد لاترتبط بالمال والمتاع.

من هنا كان لزامًا على الحاكم الإسلامي في المجتمع المسلم أن يعيش مثل أبسط الناس وأضعفهم في المعيشة.

هذا أميرالمؤمنين علي (عليه السلام) يجسد نموذج الحاكم المسلم الزاهد إذ يقول: «.. و إنّما هي نفسي أروضها بالتقوى لتأتي آمنة يوم الخوف الأكبر، وتثبت على جوانب المزلق. ولو شئت لاهتديت الطريق إلى مصفّى هذا العَسَل ولُباب هذا القمح، ونسائج هذا القزّ، ولكن هيهات أن يغلبني هواي ويقودني جشعي إلى تخيرالأطعمة، ولعلّ بالحجازأو اليمامة من لا طمع له في القرص ولا عهد له بالشبع. أو أبيت مبطانًا وحولي بطون غرثى وأكباد حرّى، أو أكون كما قال القائل:

وحَسبكَ داءً أن تبيتَ ببطنة وحولُك أكبادٌ تَحنّ إلى القدّ

أأقنع من نفسي بأن يقال: هذا أميرالمؤمنين، ولاأشاركهم في

مكاره الدهر، أو أكون لهم أسوة في جشوبة العيش!!»

٣- **التحرروالانعتاق**: الإنسان مقيد بعوامل بيولوجية وطبيعية لا يستطيع أن يتخلّى عنها، فهو مضطر إلى التنفس و إلى تناول الطعام و إلى إعداد وسائل الوقاية من البرد والحرونظائرها.. غيرأن هناك من القيود ما يستطيع أن يتحرّرالفرد منها إن روّض نفسه على التحرر. مثل قيود شحّ النفس والنهم وحبّ الادخاروالاستئثاروالجاه والمقام والشهرة ونظائرها. هذه القيود تكبّل الإنسان إن أطلق العنان لهواه ولم يروّض نفسه على الانعتاق من ربقتها.

الإنسان مكلّف بالتحررمن هذه القيود المفتعلة قَدَرما يتحمّله من مسؤولية على الساحة الاجتماعية. لذلك كان الأنبياء مكلّفون بالتحررمن هذه القيود أكثرمن غيرهم.

الزهد يؤدّي في حياة الإنسان دورًا هامًا في تحريره من العوامل التي تشدّه إلى البطروالراحة والسكون وتكريس الذات، ويجعله قادرًا على الاندفاع السريع على صعيد العمل الاجتماعي والخدمة الاجتماعية.

من هنا كان الأنبياء عليهم السلام أكثرالناس تحررًا من القيود المفتعلة، وكان رسول الله(ص) «خفيف المؤونة» كما تذكر كتب السيرة.

وهذا خرّيج مدرسة رسول الله، علي بن أبي طالب، يتحدّث عن ترويضه لنفسه على الانعتاق من القيود الدنيوية المفتعلة فيقول:

«إليك عني يا دنيا فحبلك على غاربك[1]،قد انسللتُ من مخالبك، وأفلتّ من حبائلك، واجتنبتُ الذهابَ في مداحضك.. أغربي عنّي[2]. فوالله لاأذّل لك فتستذلّيني، ولاأسلس لك فتقوديني، وأيم الله .يمينًا أستثني فيها بمشيئة الله .لأروضنّ نفسي رياضة تهشّ معها إلى القرص إذا قدرت عليه مطعومًا، وتقنع بالملح مأدومًا، ولأَدَعنَّ مقلتي كعين ماء، نضب معينها، مستفرغة دموعها. أتمتلئ السائمة من رعيها فتبرك، وتشبع الربيضة من عشبها فتربض، ويأكل علي من زاده فيهجع؟!! قرّت إذن عينه إذا اقتدى بعد السنين المتطاولة بالبهيمة الهاملة والسائمة المرعية!».

وهذا الانعتاق لا يعني الانعزال عن الدنيا، بل يعني دخول معركة الحياة بترفّع والتخلّص من كل الذاتيات، والذوبان التام في المبدأ والتضحية المستمرة على طريق أهداف الرسالة. يعني ممارسة الحياة ممارسة القائد لها لا المنقاد، والموجّه لمسيرتها لا التابع لها اللاهث وراءها.

وهكذا كان أميرالمؤمنين علي وسائرالمقتدين برسول الله(ص).

٣- تذوّق اللذات المعنوية: الانغماس في تلبية حاجات الجسد المادية يغلّظ الحسّ ويضخّمه، ويغلق منافذ المشاعرالإنسانية واللذائذ

١- الجملة تمثيل لتسريح الدنيا و إبعادها عن نفسه .

٢- أي ابتعدي عني.

المعنوية. الفرد الذي يعيش بين معلفه ومضجعه لا يمكن أن يتحسّس لذة معنوية مثل لذة الدعاء ولذة الاتصال بالله ولذّة التضحية من أجل الآخرين ولذّة طلب العلم والتفكيروالعطاء.

وحين يمارس الإنسان عملية الترفع عن الانغماس في اللذات المادية، وعلمية الانسلاخ من الانشداد البهيمي بالأرض والمتاع، فإنه ينفتح على عالم جديد وعلى لذات جديدة لا تقلّ عن اللذات المادية، إن لم تكن أعمق منها. من هنا كانت لذة الصلاة قرة عين الرسول الأعظم، و إحدى ثلاثة أشياء يتعشقها في الحياة الدنيا.

الإنسان العابد الزاهد يرى حقائق الكون بمنظاريختلف عن ذلك الفرد المنغمس في حسّه المادي..

والفرق بين الاثنين لا يقتصرعلى إطارالرؤية، بل يتّسع ليشمل التفكيروالاستنتاج والتقويم والربط. يقول تعالى: ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِلآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ، الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللّهَ قِيامًا وَقُعُودًا وَعَلَىَ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَذا بَاطِلًا سُبْحَانَكَ﴾.

ماهو الغيب؟

مرتضى مطهري

الغيب يعني الخفاء ماوراء الستار، أي هو الشيء الذي غاب عن حواسنا، وخرج عن دائرة الإدراك الحسي.

وردت كلمة الغيب مرارًا في القرآن الكريم، فتارة ذُكرت وحدها، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يؤْمِنُونَ بِالْغَيبِ﴾.

﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيبِ لاَ يعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾

وتارة أخرى استُعملت بإزاء كلمة الشهادة كقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيبِ وَالشَّهَادَةِ﴾.

الفلاسفة المسلمون استفادوا من هذا التعبير فسموا الطبيعة المادية «الشهادة» واصطلحوا على عالم الملكوت بعالم «الغيب».

الأدب العرفاني الفارسي تحدث عن عالم الغيب، بتعبيرات دقيقة رائعة نجدها منتشرة في أشعار حافظ والخيام والمولوي وسعدي..

الإيمان بعالم الشهادة لا يتطلب أكثر من الحواس. وتسمية هذا العالم بعالم الشهادة تنطلق من كون هذا العالم محسوسًا ملموسًا. من هنا لا نحتاج إلى مرشد يوجهنا للإيمان بهذا العالم، بل نحتاج إلى

معلّم يهدينا سبل البحث والتحقيق، لنتعرف أكثر فأكثر على حقائق عالم الشهادة.

غير أن هذه الحواس قاصرة عن الإيمان بعالم الغيب. وهنا تبدأ وظيفة العقل .وهو المرحلة الغيبية من وجودنا .في إدراك هذا العالم المجهول، بل لعلّ الاطلاع على هذا العالم يتطلب قوة إدراك أكثر خفاء من العقل..

الأنبياء هداة وأدلاء على عالم الغيب، بُعثوا لكي يدعوا الناس للإيمان بهذا العالم وبما وراء الحس الظاهر، وليكونوا حلقة اتصال، وليوصلوا الناس إلى المدد الغيبي في الأحوال والظروف الخاصة..

لم يكتف الأنبياء بدعوة الناس إلى الإيمان بوجود الغيب، بل عملوا على إيجاد رباط بينهم وبين ذلك العالم.. وهنا تبدأ العلاقة العملية بين الحياة البشرية وبين الغيب.

ستار الغيب

ذكرنا أن الغيب يعني الخفاء.. ماوراء الستار.

فما هو هذا الستار الذي ينبغي أن يزاح كي نستطيع أن نرى وندرك؟

أهو ستار حقيقي أم هو كناية عن حقائق أخرى؟

لقد ورد ما يرادف كلمة الستار في القرآن الكريم عند حديثه عن أهل القيامة: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾.

وفي حديث لأميرالمؤمنين علي (عليه السلام) قال: «لو كُشِف الغطاء ما ازددتُ يقينًا».

إن هذا الغطاء ليس جسمًا ماديا طبعًا، إنه التعبيرعن الإطارالذي تتحدد به حواسنا في إدراكها.

محدود وغيرمحدود

إن الموجودات تنقسم ـ بحسب التقسيم العقلي ـ إلى محدودة وغيرمحدودة. وحينما تعرّف المحدودات فإن غيرها سيتضح تلقائيًا.

إنكم تجلسون الآن في مكان معين، وتشغلون حيزًا محدودًا من الفراغ. و إن أردتم الجلوس في مكان آخر، يلزمكم ترك المكان الأول لتتحركوا إلى المكان الثاني. أي إنكم لا تستطيعون إشغال المكانين في آن واحد، فأنتم من ناحية المكان محدودون إذن بمكان معين.

وهكذا من ناحية الزمان، فنحن موجودون في الزمن الحاضر، وغيرموجودين في زمن مضى، ولا في زمن لم يأت بعد.

أما لو تسنّى لموجود أن يكون غيرمحدود في زمان أو مكان، أي أن لايخلو منه زمان ولا مكان، بل هو في كل زمان ومكان، ومهيمن على الزمان والمكان، عند ذاك تعجزحواسنا عن إدراك هذا الموجود.

نحن نستطيع أن نرى الموجود حينما يكون محدودًا ومستقرًا

في جهة معينة، وله شكل معين، ويمكن أن يشارإليه. أما إذا لم يكن محدودًا، وليس له شكل أو جهة، فتستحيل علينا رؤيته.

نحن نستطيع أن نسمع صوتًا حينما يكون موجودًا حينًا، وغير موجود حينًا آخر. أما إذا امتد الصوت في دوي واحد، واستمر دونما انقطاع في وصوله إلى أذننا، فلا نستطيع سماعه إطلاقًا.

يقول الغزالي: «نحن نستطيع أن نعرف النور لأنه موجود تارة، وغائب تارة أخرى، ولأنه مرئي في مكان ومفقود في مكان آخر. ولو قُدّر للعالم أن يكون مضيئًا باستمرار وبشكل واحد، وليس ثَمَّ ظل ولا ظلام، ولا غروب ولا أفول، لَجَهلنا ـ عند ذاك ـ معنى النور الذي هو أظهر الأشياء، بل المُظهر لكل الأشياء الأخرى».

إننا نعرف النور ـ إذن ـ بنقيضه، وهو الظلمة. وعن طريق هذا النقيض نسلّم بوجوده.

يقول المتصوفة والعرفاء: إن الله قد اختفى لشدّة ظهوره، فهو قد خفي لأنه لا يغيب، ولا يخلو منه زمان ومكان.

يامن هو اختفى لفرط نوره الظاهر الباطن في ظهوره

الشاعر الفارسي يمثل هذه المسألة بأسلوب جميل فيقول:

كانت هناك سمكة تسبح في البحر.

وكانت مثلي ذاتَ إدراك ضيق الأفق.

لم تُعانِ يومًا أذى من صياد،

ولا عدم ارتياح من شباك الصيد

لم تحس يومًا بعطش.. ولا بحرارة شمس
لقد وعت يومًا على صوت أناس..
ينادون: واعطشاه! أين الماء؟
رجعت السمكة إلى نفسها تفكرفي هذا الماء
ما هذا الإكسيرالذي يحيي كلّ شيء؟!
إذا كان هوأساس الحياة..
فَلِمَ يا ربِّ قد حَجَبته عنّي؟!
لم يكن يتجلّى أمام ناظريها صباح مساء سوى الماء..
إنها كانت تعيش بكَنَفِهِ باطمئنان، ولكنها كانت تجهله..
كانت غافلة عن النعمة التي تعيش في أحضانها،
إلى أن ألقاها الموج إلى ساحل البحر.
وحينذاك غمرت جسمَها أشعةُ الشمس المحرقة.
وأضرمَ بُعد الماء في أحشائها نارًا
لقد جفّ فمُها من شدة العطش.
وتذكرت الماء وهي مستلقيةٌ في التراب
وسمعت من بعيد خريرالماء.
بدأت تضرب نفسها الأرض وهي تقول:
لقد عثرت الآن على هذا الإكسيرالكيميائي
الذي لاأستطيع أن أعيش بدونه
أسفًا! لقد عرفته بعدما قصرتْ يدي عن نَواله.

نعم، إن السمكة، التي تعيش العمر كله في أحضان الماء، ولا تجد في مسيرها وفي كل ما يحيطها سواه، لا تستطيع أن تفهمه. والشيء الذي تشك فيه ولا تقدّره حقّ قدره هو الماء نفسه. إلا أنها عرفته وتمنّته حالما انفصلت عنه لحظة، ودخلت إلى عالم اليابسة.

هذا التمثيل يستهدف توضيح المسألة التي سبق أن ذكرناها، وهي أن السبب في خفاء الغيب يرتبط بقدرة حواسنا على الإدراك، لا بوجود مانع وحاجز بينه وبين جهازنا الحسّي والإدراكي.

نحن نعلم أن فلاسفة أوروبا المحدثين يدّعون لأنفسهم قَصَبَ السبق في البحث حول الإدراك البشري، ويعتبرون بحوثهم في هذا الميدان ابتكارًا.

ولعل الأساس الذي اتخذه بعض كبار فلاسفة أوروبا لبحوثهم هو نقد وسائل الفكر الإنساني. ومن أعظم ما كتبه «كانت» الفيلسوف الألماني كتابان حول نقد العقل النظري، ونقد العقل العملي.

لا يهمنا في هذا البحث التعرف على مقدار الابتكار في اتجاه هؤلاء الفلاسفة. ولا نريد شرح أسبقية العلماء المسلمين في تناول هذا الاتجاه النقدي. بل نكتفي بالإشارة إلى أن الفلسفة الإسلامية عمدت إلى هذا اللون من النقد قبل غيرها. ولكن لا باسم النقد بل تحت عناوين أخرى.

لهذا الاتجاه النقدي ـ في الفلسفة الإسلامية ـ عطاء ثرّ قيم يفوق

ما تمخّضت عنه العقول الأوروبية، ولي أمل العودة إلى هذا الموضوع في لقاء آخر كي نبحثه بتفصيل وبرهان.

الشاعرالفارسي ـ مولوي ـ يمثل في شعره قبل مئات السنين لمحدودية الحس البشري، فيقول:

جاء الهنود بفيل إلى أرض لم تعهد رؤية الفيل من قبل.. ووضعوه في دارمظلمة لانورفيها.

ودخل الناس واحدًا بعد آخرليمسّوه!

وما إن خرجوا حتى بدأ كل منهم يصفه من خلال ما أحسّه بلامِسَتِهِ.

فهذا الذي وقعت يده على الخرطوم قال: إن الفيل يشبه الأنبوب!

وذاك الذي لمس الأذن قال: إنه يشبه مروحة يدوية!

أما الذي استطاع لمس ظهره فوصفه بأنه يشبه السرير!

وما كان من الذي لمس قوائمه إلاأن قال: إنه يشبه الأسطوانة!

إن الباصرة قادرة على أن ترى الفيل بضخامته، وبكل أعضائه وأبعاده. أما اللامسة ـ وخاصة حينما تكون بكف اليد فقط ـ فلا تستطيع أن تدرك ذلك. والصدفة هي التي تلعب دورها في مكان وضع كفّ اليد من الفيل.

اللامسة إذن محدودة بالنسبة إلى الباصرة التي هي غيرمحدودة نسبيا. وهذه النسبة تصدق في مقارنة الحواس مع القوى العقلية.

عالم الغيب

ما هو الطريق الذي يسلكه العقل ليطّلع على العالم الآخر؟

ماهي الآثار المرئية التي بمقدورها الدلالة على ذلك العالم؟

هذه المسائل لا يمكن لهذا البحث الموجز أن يستوفيها. ولا بأس بالإشارة إلى أن البحوث العلمية والفلسفية في آخر مراحلها، قد توصلت إلى أن الأصل في كل الأشياء المادية هو الحركة. وسلكت العلوم لإثبات ذلك طريقًا يختلف عن طريق الفلسفة.

إن رأي الفلسفة يرتكز على التغير الدائم للذرات وجواهر الأشياء. الكون كله ـ في نظر الفلسفة ـ رَكْبٌ متنقّل، ولكنه ليس بذاك الرَّكب المتنقل من مكان إلى آخر فحسب، بل إنه في حالة انتقال من وجود إلى وجود آخر باستمرار وبدون انقطاع.

أثبت صدر المتألهين الشيرازي أن جواهر الأجسام في حالة تغير وتبدّل. أي إنه أثبت إمكان ما كان يعتقد أرسطو وابن سينا أنه مستحيل. وهو لم يثبت إمكان الحركة الجوهرية فقط، بل اعتبرها ضرورة حتمية.

العالم في نظر هذا الفيلسوف وحدة متحركة باستمرار، وفي حالة حدوث وفناء دائمين.

بناء على هذا فإن العالم غير قائم بذاته، بل قائم بغيره، وهذه مسألة واضحة لا تحتاج إلى شرح وتفصيل.

من هنا نفهم أن المسألة الأساسية ليست مسألة البحث عن العلة التي أوجدت العالم من العدم في لحظة واحدة معينة، بل إن البحث يتجه إلى أن العالم يولد في كل لحظة من العدم، ومِنْ خلفِهِ يدٌ تُوجده وتَفنيه باستمرار، ومن غير انقطاع..

الإمداد الغيبي

مرتضى مطهري

كل الموجودات تستمد وجودها من الغيب. وبعبارة أخرى فإن الإمداد الغيبي يعمّ الطبيعة جميعًا. ولكننا نريد أن نضيف هنا بأن ثمة مجموعة من الإمدادات الخاصة لها وجود أيضًا.

وهل هناك إمداد خاص؟.. نعم.

لكي أستطيع توضيح هذا الموضوع، ينبغي أن أشير أولا إلى مصطلح قرآني وارد في آية البسملة حيث تصف الباري تعالى بالرحمن، والرحيم.

وكلتا الكلمتين مشتقّتان من الرحمة مع تفاوت بينهما.

الرحمة «الرحمانية» تشمل كل الموجودات، إذ إن وجود كل الأشياء، وديمومتها وبقاءها مَدينٌ لهذه الرحمة.

أما الرحمة «الرحيمية» فهي اللطف والعناية الخاصة التي ينالها الموجود المكلف على أثرأداء الوظيفة المنوطة إليه. وهي عناية خاصة لها قانونها الخاص، غيرقانون الطبيعة. لقد جاء الأنبياء ليرشدونا إلى هذا النوع من الإمداد الغيبي. و إذا استقرت أنفسنا على الإيمان بهذا الإمداد، فسندخل في علاقة مباشرة مع رب العالمين. نحس بأننا أمام

جزاء عادل لكل أعمالنا خيرًا كانت أم شرًا.

وعلى أية حال ينال الإنسان أحيانًا في حياته الفردية والاجتماعية نوعًا من الرحمة تُنجيه من الكبوة والسقوط.

والله سبحانه يخاطب رسوله الكريم قائلا: ﴿أَلَمْ يجِدْكَ يتِيمًا فَآوَى، وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى، وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى﴾

ونحن في صلواتنا الخمس نقرأ:

﴿إياكَ نَعْبُدُ و إِياكَ نَسْتَعِينُ﴾

وهو نوع من الاستمداد الغيبي.

أنواع الإمداد

يد الغيب تتجلّى أحيانًا بصورة تهيئة الظروف المناسبة للتوفيق، وأحيانًا بصورة هداية وتفتّح ويقظة.

لكن الذي ينبغي تأكيده هو أن المساعدات الغيبية لا تأتي عبثًا دونما مقابل.

لا ينبغي أن يجلس الإنسان في بيته مكتوف الأيدي منتظرًا يد الغيب لتنقذه. فهذا الانتظار مخالف لناموس الطبيعة والخلقة.

نذكر آيتين كريمتين إحداهما حول الإمداد الغيبي الذي يتجلّى في تهيئة الظروف المناسبة للتوفيق، والأخرى حول إمداد الهداية المعنوية، لننظر إلى الشروط التي يصفها القرآن الكريم للإمداد الغيبي:

﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ ينصُرْكُمْ وَيثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾.

فالنصر الإلهي ـ الذي هو إمداد غيبي ـ مشروط بنصرنا لله. أي أن نبذل ما وسعنا في سبيل الصالح العام لله وفي الله.

فالسعي والجهد ينبغي أن يلازمه الإخلاص وحسن النية أيضًا.

وفي الإمداد الثاني يقول جلّ وعلا:

﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا وَ إِنَّ اللَّهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ﴾.

هذه الآية أيضًا تشترط الجهاد «فينا»، وبعبارة أخرى تشترط صرف طاقة جسمية إلى جانب الطاقة الروحية، ليستطيع الإنسان في النتيجة أن ينال الهداية والتفتح والانفتاح.

ليس هناك إذن حديث عن إمداد ينال دونما مقابل.

يتحدث الإمام علي (عليه السلام) عن شروط الإمداد والإسناد الغيبي فيقول:

«وَلَقَدْ كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ (صلى الله عليه وآله) نَقْتُلُ آبَاءَنَا وأَبْنَاءَنَا و إِخْوَانَنَا وأَعْمَامَنَا مَا يزِيدُنَا ذَلِكَ إِلاّ إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا ومُضِيًا عَلَى اللَّقَمِ وصَبْرًا عَلَى مَضَضِ الأَلَمِ وجِدًّا فِي جِهَادِ الْعَدُوِّ ولَقَدْ كَانَ الرَّجُلُ مِنَّا والآخَرُ مِنْ عَدُوِّنَا يتَصَاوَلَانِ تَصَاوُلَ الْفَحْلَينِ يتَخَالَسَانِ أَنْفُسَهُمَا أَيهُمَا يسْقِي صَاحِبَهُ كَأْسَ الْمَنُونِ فَمَرَّةً لَنَا مِنْ عَدُوِّنَا ومَرَّةً لِعَدُوِّنَا مِنَّا فَلَمَّا رَأَى اللَّهُ صِدْقَنَا أَنْزَلَ بِعَدُوِّنَا الْكَبْتَ وأَنْزَلَ عَلَينَا النَّصْرَ حَتَّى اسْتَقَرَّالإِسْلامُ مُلْقِيًا جِرَانَهُ ومُتَبَوِّئًا أَوْطَانَهُ ولَعَمْرِي لَوْ كُنَّا نَأْتِي مَا أَتَيتُمْ مَا قَامَ لِلدِّينِ عَمُودٌ ولا اخْضَرَّلِلإِيمَانِ عُودٌ».

وهذه الآية تطالعنا في سورة الكهف من قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى، وَرَبَطْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ إِذْ قَامُوا﴾.

وهي تحدثنا عن الهداية، وعن ربط القلب وتقوية الإرادة، وكلاهما مشروطان بعاملين:

الأول: القيام.

والثاني: أن يكون هذا القيام لله وفي سبيل الله.

الذي يبحث عن الحق والحقيقة، ويجهد نفسه في طريق الوصول إليها سوف تمتد إليه يد الغيب لتشمله بعنايتها، وهذه لعمري مسألة تجربية إضافة إلى أنها مسألة إيمانية. لكنها تجربة شخصية، يلزم على الفرد أن يمارسها في حياته ليلمس آثار اللطف والعناية الربانية وهي تحتضنه.

وما أجملها من لذة..!!

ليس الأمر بالصعب. مراحله الأولية بسيطة يستطيع الإنسان أن يطويها من خلال خدمة المجموع ومساعدة الضعيف، والإحسان إلى الوالدين، على أن يصحبَ هذه جميعًا الإخلاصُ وحسنُ النية.

عند ذاك سوف تتجلّى له اليد الرؤوفة آخذة بناصره، ولعلّي أستطيع أن أدّعي بأني مارست تلكم الشروط، وأحسست معها باللذة تحتَ ظلال رحمةِ رب العالمين، ولمست تلك العناية بوضوح.

يخطر في ذهني ــ بهذا الصدد ــ موقفُ المرحوم آية الله البروجردي .أعلى الله مقامه ..

لقد غادر ـ رحمه الله ـ مدينة (بروجرد) إلى (طهران) على أثر مرض شديد تطلب عملية جراحية.

ثم شدّ الرحال منها إلى مدينة (قم) حيث اختارها مقامًا على أثر طلب الحوزة العلمية منه ذلك.

وعند حلول العطلة الصيفية للحوزة في تلك السنة قررأن يسافر إلى مشهد الرضا (عليه السلام) إذ عُلمَ بعدها أنه كان قد نَذَرعلى نفسه هذا السفرلله أثناء مرضه رجاءًا للشفاء.

أعلن سماحته تصميمه هذا في مجلس خاص من العلماء، وطلب إليهم أن يعينوا مَنْ يرافقه في سفره هذا. وكان جواب الأصحاب أن طلبوا منه فرصة ليفكروا في الأمر.

قال لي أحد العلماء ممن حضرذلك المجلس: إننا اجتمعنا وتشاورنا في الأمر، فلم نجد الظرف مناسبًا لسفرٍمثل هذا، في ذلك الوقت. إذ إن السيد البروجردي كان قريب العهد في القدوم إلى مدينة (قم)، ولم يتعرف عليه الشعب الإيراني بعد، وعلى هذا فإن المواطنين سوف لا يقومون بما يناسب منزلته من الحفاوة والتكريم.

كان هذا هو العامل الأول الذي دعانا إلى تثبيط عزيمة السيد على السفر، ولكنا لم نجرؤ على أن نصارحه بالسبب الحقيقي، بل جعلنا العملية الجراحية التي أُجريت له حجة لرفضنا هذه السفرة. وكان أن قلنا جميعًا: إن السفرالطويل بالسيارة (إذ لم يكن خط جوي أو حديدي يربط المدينتين آنذاك) سوف لا تكون نتائجه حَسَنة على صحّة السيد.

وفي جلسة أخرى حيث كرّر السيد حديثَ السفر، سعينا بكل ما وسعنا من جُهد لأن نغير وجهة نظره، لكنّ أحدَ الحاضرين لم يخفِ الأمر، بل صرّح له بقصدنا من وراء هذه المخالفة.

تغيرت ملامح السيد فجأة، وتحدث بلهجة صارمة روحية قائلا: «منحني الله سبعين سنة من العمر كانت مملوءة بمنَح وعطايا لم تكن إحداها من تدبيري وتقديري. سعيت طوال هذه المدة لأن أتعرف على وظيفتي في الحياة. والآن، وبعد أن تصرّمت تلك السنون السبعون، لا ينبغي أن أفكر بأموري الخاصة بنفسي! كلا.. لابد أن أسافر..».

نعم، إن الإنسان، لو قرن السعي بالإخلاص في ممارسته لأعماله الحياتية، سوف يأتيه التسديد من حيث لا يحتسب.

الفرق بين الفكر الإلهي والفكر المادي

إذا نصرتم الحقيقة، فلابد أن تكون الحقيقة سندًا لكم وظهيرًا.

وهنا يبدو بوضوح الفرق بين الإنسان الإلهي والإنسان المادي.

ليس ثم تفاوت ـ في نظر الإنسان المادي ـ بين طريق الحق والباطل، وبين العدل والظلم. وليس للحق والباطل، ولا للصالح والطالح في ميزان النظام الكلّي للعالم حساب ووزن.

فالعالم لا يعبأ بهذه الموازين والقيم.

ليس للعالم ـ في الرؤية المادية ـ عين ولا أُذن ولا عقل ولا إدراك يعي بواسطتها القِيم المختلفة ليسند ويؤيد السائرين على طريق الحقّ، ويخذل المنحرفين عن الطريق السوي المستقيم.

إلا أن الإنسان الإلهي يفرّق بين الطريقين. فهناك حقيقة تسند دعاة الحق وتأخذ بأيديهم.

ذكرت في كتاب *الإنسان والمصير* تحت عنوان «أثر العوامل المعنوية على المصير»: «أن الرؤية المادية للعالم تذهب إلى أن العوامل المؤثرة على أجَلِ الإنسان ورزقه وسلامته وسعادته مادية صرفة. فالعوامل المادية وحدَها هي التي تتحكّم في تقريب أجَل الإنسان، وفي ضيق رزقه وسعته، وفي سلامة جسمه، وكذا في ضمان سعادته.

إلا أن الرؤية الإلهية للعالم تذهب إلى أن العوامل الروحية والمعنوية تؤثر ـ إلى جانب العوامل المادية ـ في كل ما يعتري الإنسان شرًا أم خيرًا.

النظرة الإلهية تعتبر العالم وحدة حية ذات إدراك وشعور. أعمال البشر فيه محصية، ولأفعالهم نتائج يتلقونها عاجلًا أم آجلًا..».

النظرة المادية ترى أن العالم يقف محايدًا تجاه السنن التشريعية والاتجاهات العملية البشرية. أي ترى أن السنن الكونية في العالم لا تتحيز لأنصار الحق أو لأنصار الباطل، لأن مفاهيم الحق والباطل، والصحيح والخطأ، والعدل والجور، لها في المنظار الكوني حساب واحد.

لكن المدرسة الإلهية لا تنظر إلى العالم نظرة المحايد في موقفه تجاه أصحاب الحق والباطل.

العالم ـ في رأي هذه المدرسة ـ مناصر للسائرين على طريق الحق والعدالة والاستقامة، ولذوي الأهداف المقدسة.

الإنسان المادي ـ مهما أوتي حظًا من الإيمان والاعتقاد بمذهبه وطريقه، ومهما كانت أهدافه وآماله ذات مصلحة عامة ومقدسة وبعيدة عن الذاتية والنفعية ـ لا يؤمن بأكثر من أنه سوف يتلقى نتائج أعماله بمقدار ما بذله من سعي وجهد لا أكثر.

بينما الفرد المسلم يؤمن ويعتقد أنّ الموجودات الكونية سوف تهبّ لحمايته ونُصرته، إن ضحّى في سبيل عقيدته و إيمانه. ويؤمن أنّ الكون ينطوي على قوى تفوق آلاف المرات تلكم القوى التي يبذلها في الطريق.

الرؤية المادية تؤكد أن دعاة الحق يتلقّون من نتائج أعمالهم بنفس القدر الذي يتاح للظالمين أن يكسبوه نتيجة ظلمهم؛ إذ ليس ثمة فرق ـ في الفهم المادي ـ بين الفريقين، إلا أن الفرق هائل في حساب المدرسة الإلهية.

الإلهام والإشراق

الإلهام أو الإشراق نوع من المدد الغيبي ينفذ إلى كيان العلماء فيفتح لهم أبوابًا من العلم تؤدي إلى اكتشافات هائلة.

إن الطرق التي نفهمها للوصول إلى العلم اثنان، إحدهما: التجربة والمشاهدة العينية، والآخر: القياس والاستدلال.

هذه المكتسبات طبيعية لأنها النتيجة القطعية اللازمة لمقدمات طواها الإنسان بشكل عملي. غيرأن هذه المكتسبات ـ في المنظار الفلسفي الدقيق ـ ليست منفصلة عن منشأ إلهامي. و إلى هذا يشير السبزواري في منظومته:

والملهم المبتدع العليم حي قديم منّه عظيم

وهذا خارج عن بحثنا.

والسؤال الذي ينبغي أن نطرحه هو: هل إن البشرية قد طوت مسيرتها العلمية من خلال هذين الطريقين فحسب، أم إن ثمة طريقًا ثالثًا قد أمدّها بما توصّلت إليه وجَنَته؟

يعتقد العلماء أن هناك طريقًا ثالثًا. ولعل أغلب الاختراعات والاكتشافات الكبرى تمت عن هذا الطريق الثالث، وهو نوع من تيار كهربائي قد ينقدح فجأة في نفس العالم وعقله، فيضيء ما حوله، ثم ما يلبث أن ينطفيء.

يعتقد ابن سينا أن هذه القوة موجودة في الأفراد بدرجات متفاوتة ومختلفة، ويذهب إلى تفسيرالآية الكريمة:

﴿ يكَادُ زَيتُهَا يضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾.

بهذه القوة التي لها وجود شديد مؤثرعند بعض الأفراد.

يذهب الغزالي في كتابه *المنقذ من الضلال* إلى أن أكثر

معلومات البشر المرتبطة بالاحتياجات المعاشية انبثقت أولا بشكل إلهامي. وفي بحثه عن الوحي والنبوة يقول: إن مجموعة المعلومات التي يمتلكها البشر عن الأدوية والعلاج وعن النجوم لا يمكن أن تكون مكتسبة عن طريق التجربة، فلابد أن تكون صادرة عن اللطف الإلهي، بطريق الإلهام، لهداية البشر.

الخواجه نصير الدين الطوسي هو الآخر في بحثه عن الوحي والنبوة يذهب إلى أن معظم ما توصل إليه البشر تم عن طريق الإلهام.

لعل الكثيرين يتصورون أن الإلهام فكرة قديمة ليس لها اليوم أنصار، ويخالون أن الحواس الظاهرة هي مصدر كل معلوماتنا في عالمنا اليوم عن طريق المشاهدة والتجربة، ولا شيء غير هذه الحواس!!

لكنّ المسألة ليست كما يتصورون ويخالون.

جمع كبير من العلماء المعاصرين يذهب إلى أن كثيرًا من النظريات أُوحِيت إلى العلماء عن طريق شبيه بالإلهام.

يدافع «الكسيس كارل» في كتابه *الإنسان ذلك المجهول* عن نظرية الإشراق والإلهام ويقول:

«من المؤكد أن الاكتشافات العلمية ليست فقط حصيلة الفكر الإنساني. النوابغ يمتلكون خصائص معينة كالإشراق والخلاقية، إضافة لما لهم من مطالعات وتفكير في المسائل المختلفة. فعن طريق الإشراق يدركون ما خفي عن الآخرين، ويبصرون

الروابط المجهولة بين القضايا التي يظن أن لا ارتباط بينها، ويتوصلون إلى فهم المسائل الهامة دونما دليل وبرهان».

ويقول أيضًا:

«يمكن تقسيم العلماء إلى فريقين: منطقيين و إشراقيين، والعلوم مدينة لهذين الفريقين. وللإشراق نصيبه في العلوم الرياضية أيضا، مع أنها تستند إلى أساس منطقي كامل. ويحتل الإشراق في الحياة الاعتيادية ـ كما في القضايا العلمية ـ محلًا خطيرًا باعتباره عاملًا للفهم والإدراك، ويصعب التمييز أحيانًا بينه وبين التوهّم...

الرجال العظام والطاهرون يستطيعون، عن طريق الإشراق، التوصل إلى قمة الحياة المعنوية. وهذ الموهبة عجيبة حقًا، و إدراك الواقع دونما دليل وتفكير، غير قابل للتفسير».

يعرض لنا «الكسيس كارل» ثلة من علماء الرياضيات يدّعي أنهم منطقيون اكتسبوا معلوماتهم عن طريق السعي والاستنتاج المنطقي فحسب، ويعرض إلى جانب هؤلاء أسماء عدة من علماء الرياضيات الذين تلقّوا علمهم عن طريق الإشراق والإلهام.

هذه النظرية أيدها علماء آخرون. وأخيرًا اطّلعتُ على مقال للعالم الرياضي الفرنسي «جاك هادا مارا» تحت عنوان «دور العقل الباطن في في الإدراك العلمي» جاء في ترجمته:

«حينما نفكر بالعوامل التي أدت إلى ظهور الاكتشافات والاختراعات فإننا لا نستطيع إطلاقًا أن نتجاهل دور الإدراك الفجائي الداخلي.

كل عالم محقق يدرك ـ إلى حد ما ـ هذه المسألة، ويعلم أن بعض ما توصل إليه من المسائل العلمية كانت نتيجة سلسلة من النشاطات الشعورية، بينما توصل إلى البعض الآخر عن طريق الإلهام الباطني».

العالم الكبير «أنشتاين» كان له نفس هذا الإيمان حول الفرضيات الكبرى، وكان يقول إن مبدأ هذه الفرضيات نوع من الإلهام والإشراق.

نتيجة

نفهم من مجموع ما ذُكر أن أنواعًا من الإمدادات الغيبية لها وجود في حياة الأفراد، تمنح الفرد أحيانًا عزمًا و إرادة وربطًا على القلب، وقد تعدُّ له الوسائل المادية، أو تبرز هذه الإمدادات بشكل قوة تهدي وتُنير، وتلهم الأفكار العلمية.

من هنا نعلم أن الإنسان لم يترك سدى، فاللطف الإلهي والعناية الربانية تشمله في شروط معينة، وتنتشله من الضلالة والضياع والحيرة، وتنجيه في لحظات العجز والخور والضعف.

إن هذا شأن الأفراد فما شأن المجتمعات؟

الإمداد الغيبي الاجتماعي

هل من الممكن أن تمتد يد العناية الغيبية إلى مجتمع كي تنتشله من هوّته وتساعده في قيامه؟

الأنبياء العظام كإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليه وعليهم، والمصلحون المعروفون، ظهروا في وقت تحتاج إليهم البشرية أيمّا احتياج.

إنهم كانوا كاليد الغيبية التي امتدت لتُنجي البشرية. كان شأنهم كالديمة السمحاء التي تهطل في صحراء قاحلة مجدبة، كانوا مصداق قول الله تعالى: ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾.

الإمام علي (عليه السلام) يصف الظروف التي رافقت البعثة النبوية المباركة فيقول:

« أَرْسَلَهُ عَلَى حِينِ فَتْرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ وطُولِ هَجْعَةٍ مِنَ الْأُمَمِ وَاعْتِزَامٍ مِنَ الْفِتَنِ وانْتِشَارٍ مِنَ الْأُمُورِ وتَلَظٍّ مِنَ الْحُرُوبِ والدُّنْيا كَاسِفَةُ النُّورِ ظَاهِرَةُ الْغُرُورِ عَلَى حِينِ اصْفِرَارٍ مِنْ وَرَقِهَا و إِياسٍ مِنْ ثَمَرِهَا».

إن ظهور الأنبياء أعقب سقوط البشرية، أو انحدار مجتمع من المجتمعات في هوّة سحيقة، فكان أولئك الأنبياء سببًا للإنقاذ والنجاة.

القرآن الكريم يخاطب معاصري الدعوة قائلا: ﴿وَكُنتُمْ عَلَىَ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا﴾.

يقول المثل الفارسي: «الضياء والصباح نهاية الليل الأسود» وتقول أمثال بعض الشعوب: «الفرج نهاية الشدة». وهذه المقولات تتحدّث عن نوع من التجارب البشرية، وتدلّ على أن سير الكون ليس عبثيًا كما يتصوّره الماديون.

مسألة المهدي المنتظر (عليه السلام)

مرتضى مطهري

مسألة المهدي في الإسلام، هي مسألة فلسفية كبرى.

الإنقاذ المرتقب لا ينحصر في أمة معينة أو منطقة مشخّصة أو جنس بالذات، بل إن الإنقاذ يمتدّ ليشمل البشرية جمعاء، وليسير بها نحو مدارج الرقي والصلاح والسعادة.

ربما قال قائل: إننا في عصر العلم وتسخير الفضاء، وليس ثم خطر يواجه البشرية كي تكون هناك حاجة إلى إنقاذ غيبي!! البشرية ترتقي على سلّم الاستقلال والكمال، ويقلّ احتياجها تدريجيا إلى المعونة والإمداد، فالعقل والعلم يملآن فراغ الحاجة والاستمداد!! كان الخطر يواجه البشرية حينما كانت تغطّ في غياهب الجهل والانحطاط، وليس ثمّ خطر يواجه مجتمعًا تنوّر بالعلم والمعرفة!!

هذا الجنوح في الخيال لا أساس له مع الأسف.

إن الخطر الذي يحدق بالبشرية اليوم ليس بأقل مما كان يحيط بمجتمعات العصور السالفة، بل إنه أكثر وأعظم.

من الخطأ أن نعتقد أن الجهل كان وراء انحراف البشرية دائمًا. وهذه مسألة شغلت الباحثين في علم التربية والأخلاق.

إن سبب الانحراف هو الغرائز والأهواء المرسلة العنان. هو الشهوة والغضب والحرص على طلب الشهرة والجاه، والنهم في الاستكثار من اللذة، وحبّ الذات وعبادتها.

والآن لنلق نظرة على الغرائز المادية، والأهواء البشرية في عصرنا الراهن، وكذا على دوافع السيطرة واستثمار الآخرين وعبادة الذات والمنفعة الشخصية، وعلى دوافع الظلم الإنساني.

هل إنها جميعًا هادئة مستقرة في ظل العلم؟

هل إنها مهذبة بروح العدل والتقوى والرضا والعفاف والاستقامة؟!

أم إن المسألة معكوسة تمامًا؟!

لم يعد خافيًا أن الغرائز البشرية المادية قد جنّت اليوم أكثر من أي وقت مضى، وأضحت العلوم والفنون أدوات وآلات لدن تلكم الغرائز.

أضحى مَلاك العلم في خدمة شيطان الشهوة، وأصبح العلماء وكل المشتغلين في الحقل العلمي أدوات طيعة تخدم الساسة والفراعنة وطلاب السيطرة والنفوذ.

ليس هناك من شك في أن التقدم العلمي لم يترك أي أثر إيجابي على الغرائز البشرية.. بل بالعكس فإن هذا التقدم زاد من غرور الإنسان وطغيانه وهيج غرائزه الحيوانية، وسعّر لظاها، حتى أضحت العلوم والفنون اليوم أكبر عدوّ للبشرية.. أي إن هذا الصديق الحميم للبشر أصبح عدوًا لدودًا له..

لماذا؟!

لأن العلم مصباح، وسيلة إنارة.. الاستفادة منه ترتبط بكيفية استعمال هذا المصباح، والهدفِ من وراء هذا الاستعمال.

يستطيع الفرد أن يستفيد من المصباح لقراءة كتاب أو ـ على حد قول الشاعر الفارسي سنائي ـ لانتقاء المتاع الأفضل عند السرقة.

العلم سلّم تستطيع البشرية عن طريقه أن تصل إلى أهدافها، وتحقق غاياتها، وليس العلم بقادر على تغيير أهداف الإنسان، ولا يستطيع أن يقدّم له قِيمًا ومقاييسَ إنسانية.

هذه وظيفة الدين.. الدين هو الذي يستطيع أن يتحكّم في الغرائز والأهواء الحيوانية، ويحرّك في الإنسان الدوافع النبيلة السامية.

العلم يستطيع أن يخضع لسيطرته كلَّ شيء، إلا الإنسان وغرائزه. الإنسان هو الذي يسخّر العلم في الاتجاه الذي يطمح إليه. والدين هو الذي يسخّر الإنسان ويوجهه الوجهة الخاصة.

يقول «ويل ديورانت» في مقدمة كتابه *لذائذ الفلسفة* عن إنسان عصر الآلة: «نحن أصبحنا أغنياء في التكنيك والآلة، إلا أننا فقراء في الهدف.

لم يتغير الإنسان في عصر العلم عن ذاك الإنسان الذي كان يعيش في عصور قد خَلَت من قبل في كونه أسيرًا لقوتي الغضب والشهوة وعبدًا لهما.

لم يستطع العلم أن يحرّر الإنسان من أهوائه النفسية.. لم

يستطيع أن يغيرروح التجبّروالتفرعن والسفك والغضب في الإنسان.

مع فارق، هو أنّ روحَ النفاق والتظاهرقد سادت في عالمنا اليوم، وهيمنت عليه. وأن يدَ الاعتداء قد طالت فتجاوزت حدودَ السيف لتصل إلى مرتبة الصواريخ عابرة القارات، و إلى قاذفات القنابل».

مستقبل العالم

إننا مسلمون مؤمنون بوجود إله مهيمن على هذا الكون. وهذا الإيمان هو الذي يقلّل من خطرالكارثة في أعيننا.

كل الأخطارالتي تحيط بالإنسانية اليوم لا توحي لنا بالفناء الكامل لهذا الكون، لأننا مطمئنون في أعماقنا بأن للبشرية مستقبلًا يمتدّ إلى ملايين السنين.

إن هذا الاطمئنان تبعثه في النفس تعاليم الرسل والأنبياء، إنه في الواقع إمداد غيبي نستند إليه.

لو أُخبرنا بنجم ضخم يسيربسرعة في الفضاء، ويقترب تدريجيًا من مدارالأرض، وبأنه سيرتطم بالأرض بعد ستة شهورليحوّلها إلى كومة رماد.. لو قيل لنا هذا لما تسرّب إلينا الخوف، لأن في أعماقنا نوعًا من الاطمئنان والإيمان بأن الوقت لم يحن لفناء البشرية التي لم يمض طويلًا على تفتّح براعمها.

وكما أننا لا نؤمن بأن أرضنا ستفنى بفعل سقوط نجم أو كوكب، كذلك لا نصدّق مقولة فناء الأرض بيد القوى البشرية المخربة.

والآخرون..؟ هل إنهم لا يصدقون أيضًا؟

هل هم متفائلون أيضًا بمستقبل الأرض والإنسان والحياة والمدنية والسعادة والعدالة والحرية؟!

كلا..

إننا نلاحظ باستمرار علامات الخوف والتشاؤم في خطب وأحاديث ساسة العالم بالنسبة إلى مستقبل البشرية والحضارة.

ولو أهملنا تعاليم الدين و إيماننا بالإمداد الغيبي، ولاحظنا المسألة على أساس العلل والأسباب الظاهرية، لوافقناهم في التشاؤم، وجعلنا الحقّ في جانبهم.

لماذا لا يتشاءمون؟!

أي تفاؤل في دنيا يقرّر مصيرَها ضغط زرّ يؤدي إلى انطلاق وسائل الدمار والتخريب؟!

أي تفاؤل في عالم يرقد على كتل عظيمة من البارود تنتظر الشرارة كي تتحول إلى حريق عالمي؟!

يقول «رسل» في كتابه الآمال الجديدة:

«إن الاحساس بالحيرة والضعف وعدم القدرة يسود في عصرنا الحاضر.

نرى أنفسنا نقتربُ من حرب لا نريدها جميعًا، حرب سوف تفني معظم البشر.

ومع هذا فإننا كأرنب قد لاقى حية فمكث في مكانه، ننظر

من طرف خفي إلى الخطرالمحدق بنا دون أن ندري ما نعمل!!

أحاديث القنبلة الذرية والهيدروجينية المخوفة المخربة تنتشرفي كلّ مكان، ونتناقل فيما بيننا أخبارَالجيش الروسي (إن كتاب ـ الآمال الجديدة ـقد كتب يوم كان الغرب مرعوبًا من الروس، أما الآن فقد برزت الصين لتُرعب المعسكرين كليهما)، وأخبارَالقحط والتكالب والوحشية.

في الوقت الذي نقف فيه نحن أمام هذه المظاهرمذهولين مذعورين، فإننا لم نعد قادرين على اتخاذ موقف حازم من هذه المأساة».

وهل البشرقادرون على اتخاذ مثل هذا الموقف؟!

هو يقول أيضًا:

«إن مدة ظهورالإنسان طويلة بالنسبة إلى عصرالتاريخ، لكنها قصيرة بالنسبة إلى العصورالجيولوجية.

يقال إن الإنسان قد ظهرإلى الوجود قبل مليون سنة، ويذهب البعض ومنهم « أنشتاين» إلى أن الإنسان قد اجتازفترته الحياتية، وسيستطيع خلال سنين معدودة، بمعونة تقدّمه العلمي الهائل، أن يفني نفسه».

لو حكمنا على الأمورمن خلال الأسباب والظواهرالمادية لما حكمنا عليها حقًا بغيرهذا النوع من التشاؤم. وهذه النظرة السلبية لا يمكن أن تتبدل إلى نظرة إيجابية متفائلة إلا عن طريق إيمان روحي،

إيمان بأن الإنسانية تنتظر في مستقبل أيامها حياة الرفاه والسعادة والأمن والعدل.

لو أننا قبلنا صورة التشاؤم القاتمة، فإن حياة الإنسانية ستكون مضحكة حقًا.. إنها تشبه حياة ذلك الطفل الذي ما إن استطاع حمل السكين حتى أسرع إلى الانتحار بغرس السكين في بطنه.

يقال: إن عمر الأرض أربعون مليار سنة، وأن عمر الإنسان على هذا الكوكب يقرب من مليون سنة.

ويقال أيضًا: لو افترضنا أن عمر الأرض سنة واحدة، فإن ثمانية أشهر مضت من هذا العمر دون أن يوجد على ظهر الأرض أي أثر للحياة.

وفي حدود الشهر التاسع بدأ ظهور الحياة بشكل فايروسات ذات خلية واحدة.

في الأسبوع الثاني من الشهر الأخير ظهرت الحيوانات اللبنية، وفي الربع الأخير من الساعة الأخيرة للسنة ظهر الإنسان.

والفترة التي خرج فيها الإنسان من حياته المتوحّشة وحياة الغابات والكهوف هي آخر ستين ثانية من هذه السنة. وفي هذه الثواني الستين ظهر استعداد الإنسان في الاستفادة من عقله في تسخير مظاهر الطبيعة، وفي بناء حضارته ومدنيته. وفي هذه الثواني الستين أثبت الإنسان جدارته بتحمل أعباء خلافة الله في الأرض.

ولو قيل الآن إن الإنسان بمهارته العلمية الفائقة سيفني نفسه

عاجلًا، ولم يتبق من زواله سوى بضع أقدام من مسيرته. لو قيل هذا، فإنه لا يعني سوى أن مسألة خلق الإنسان ليست إلا عبثًا لا معنى لها.

نعم، إنّ نفرًا من الماديين يستطيع أن يزعم هذا، لكن الفرد الذي تربّى في المدرسة الإلهية لا يمكن أن يذهب إلى هذا التفكير. إنه يقول: لا يمكن للعالم أن يفنى بيد نفر من المجانين. إنه يؤمن بالخطر المحدق بالعالم، ولكنه يؤمن أيضًا بأن تجربة الإنقاذ التي تفضّل بها الله على البشرية سوف تتكرر، وسوف تمتدّ يد الغيب لتبعث المنجي والمصلح كما فعلت مِنْ قبل.

الإنسان الإلهي يرى: أن العالم لم يخلق عبثًا، ويسخَرُ مِنْ مقولة الماديين حول فناء الإنسان التي يصدق عليها المثل العربي:

«ما أدري أسلّم أم ودّع».

فناء البشرية في عصرنا الراهن مخالف لحكمة الله:

إذ مقتضى الحكمة والعناية إيصال كل ممكن لغاية

كلا.. إن عمر الأرض لم ينته بعد، إنه في أول مراحله.

البشرية تنتظر دولة عالمية قائمة على أساس العدل والخير والسعادة والأمن والرفاه.

سوف يصل اليوم الموعود وتُشرق الأرض بنور ربها وسيكون ذلك:

«إذا قام القائم.. وحكم بالعدل، وارتفع في أيامه الجور، وأمنت به السبل، وأخرجت الأرض بركاتها، ولا يجد الرجل منكم يومئذ موضعًا لصدقته ولا برّه، وهو قوله تعالى: والعاقبة للمتقين».

بدل أن نكون سلبيين متشائمين، بدل أن نجلس لنعدّ الأيام المتبقية من عمرالبشرية، بدل كلّ هذا، علينا أن نتطلّع إلى إطلالة فجرالنصرمن وراء كل الخطوب، فالشرارة لا تنيرإلا في الظلمة.

يشيرالإمام علي إلى ظهورالمهدي فيقول:

« حَتَّى تَقُومَ الْحَرْبُ بِكُمْ عَلَى سَاقٍ بَادِيًا نَوَاجِذُهَا[1]، مَمْلُوءَةً أَخْلَافُهَا[2]، حُلْوًا رَضَاعُهَا[3]، عَلْقَمًا عَاقِبَتُهَا[4]. أَلَا وفِي غَدٍ وَسَيأْتِي غَدٌ بِمَا لَا تَعْرِفُونَ يأْخُذُ الْوَالِي مِنْ غَيرِهَا عُمَّالَهَا عَلَى مَسَاوِئِ أَعْمَالِهَا[5] وتُخْرِجُ لَهُ الْأَرْضُ أَفَالِيذَ كَبِدِهَا[6]، وتُلْقِي إِلَيهِ سِلْمًا مَقَالِيدَهَا فَيرِيكُمْ كَيفَ عَدْلُ السِّيرَةِ ويحْيِي مَيتَ الْكِتَابِ والسُّنَّةِ »[7].

الإمام علي يتطلع إلى غد عبوس مكفهرّ، ولكنه يبشربطلوع فجرالنصرمن وراء كل تلكم الظلمات.

والقرآن الكريم يقول:

﴿ وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِمِن بَعْدِ الذِّكْرِأَنَّ الأرض يرِثُهَا عِبَادِي الصَّالِحُونَ ﴾.

١- النواجذ: أقصى الأضراس أو الأنياب، كناية عن شدة احتدام الحرب .

٢- الأخلاف، جمع خلف: الضرع، كناية عن غزارة مافيها من الشر.

٣- حلوًا رضاعها: للمظلومين والمستضعفين .

٤- علقمًا عاقبتها: للظالمين .

٥- إذا انتهت الحرب حاسب الوالي القائم كلّ عامل من عمال السوء على مساوئ أعمالهم، و إنما كان القائم من غيرها لأنه بريء من جرمها .

٦- أفاليذ جمع أفلاذ جمع فلذة: وهي القطعة من الذهب والفضة .

٧- أفاليذ جمع أفلاذ جمع فلذة: وهي القطعة من الذهب والفضة .

نعم. هذه هي الفلسفة العظمى في مسألة ظهور المهدي.

إنها و إن كانت تنذر بأزمات عظام.. لكنها تبشر بالسعادة وانتصار الحق والعدالة بعد هذه الأزمات.

وهذا هو أمل الإنسانية الكبير..

أللهم إنا نرغبُ إليك في دولة كريمة

تعزّبها الإسلام وأهله.. وتذلّ بها النفاق وأهله..

وتجعلنا فيها من الدعاة إلى طاعتك والقادة إلى سبيلك..

وترزقنا بها كرامة الدنيا والآخرة.

«لقد غاب عنّا المطهري الذي قلّما نجد له مثيلاً من ناحية طهارة الروح وصلابة الإيمان وقوة البيان ... لكن الأعداء لن يستطيعوا أن ينهوا شخصيته الإسلامة والعملية والفلسفية، وأن القتلة لن يستطيعوا محق الشخصية الإسلامية لرجال الإسلام»

«إنه قدّم للإسلام والعلم خدمات جليلة، و إنه لمن المؤسف حقًا أن تقوم الأيدي المجرمة باقتلاع هذه الشجرة من المجامع العلمية والإسلامية وتحرم الجميع من ثمراتها القيمة. لقد كان ابنًا عزيزًا لي، وخادمًا صادقًا للشعب والقطر».

من كلام الامام الخميني في حق الشهيد مطهري

الإنسان والحيوان

مرتضى مطهري

الإنسان نوع من أنواع الحيوانات، ومن هنا فهو ذو صفات مشتركة كثيرة مع سائر الأحياء، لكنه يختلف عنها في أمور صيرت منه موجودًا متميزًا، ومنحته صفات سامية ينفرد بها بين الأجناس الحية.

الأمور التي تُميز الإنسان، وتمنحه صفة «الإنسانية» وتؤهّله لبناء «الحضارة» و«الثقافة الإنسانية» تعود الى: ١-الادراكات. ٢- التطلّعات.

الأحياء عامة تتّصف بالقدرة على إدراك نفسها والعالم المحيط بها، كما تتّصف بالسعي من أجل تحقيق احتياجاتها ومتطلباتها في ضوء مدركاتها.

والإنسان ـ مثل سائر الأحياء ـ ذو ميول ورغبات وتطلعات يسعى إلى تحقيقها في ضوء اطلاعاته ومدركاته. غير أنه يختلف عن سائر الأحياء في سِعَة دائرة اطلاعاته ومعلوماته ومعارفه، وفي سمو رغباته وتطلعاته.

وهذا ما يميز الإنسان ويمنحه صفة التعالي والسمو على سائر الأحياء.

دائرة مدركات الحيوان ومستوى تطلّعاته

تتميز مدركات الحيوان عن العالم الخارجي بما يلي:

أولا: إنها سطحية وظاهرية، لأنها تتم عن طريق الحواس الظاهرة فقط.

ثانيًا: فردية وجزئية، أي تفتقد قدرة التعميم.

ثالثًا: محلّية أي إنّها محدودة ببيئة الحيوان ولا تتعدّى إطار تلك البيئة.

رابعًا: حالية، أي إنها ترتبط بالزمن الحاضر، ومنقطعة عن الماضي والمستقبل. فالحيوان لا يعي تاريخه وتاريخ العالم، ولا يفكّر بالمستقبل ولا ترتبط مساعيه بالمستقبل.

فالحيوان في مدركاته، لا يخرج إطلاقًا عن إطار الظواهر الفردية والجزئية، والبيئة، والزمن الحاضر. فهو سجين هذه الأطر الأربعة. و إن خرج أحيانًا، فخروجه ليس عن وعي وانتخاب، بل عن جبر طبيعي، وعن اندفاع غريزي يفتقد الوعي والشعور.

متطلبات الحيوان وتطلعاته، محدودة في إطار خاص أيضًا كمدركاته عن العالم، فهي:

أولًا: مادية، إذ إنها لا تتعدّى حدود الأكل والشرب والنوم واللعب واتخاذ المأوى و إشباع الغريزة الجنسية. وليس للحيوان متطلبات معنوية ولا قِيم خلقية.

ثانيًا: شخصية وفردية، أي ترتبط به، وقد تتعدى ذلك إلى الزوج والفِراخ على أكثر تقدير.

ثالثًا: إقليمية، لا تخرج عن إطار بيئته.

رابعًا: حالية، وترتبط بالزمن الحاضر فقط.

الحدود التي تؤطر إدراكات الحيوان هي نفسها تؤطر تطلعاته ورغباته.

و إن اتفق أن تحرك الحيوان نحو تحقيق هدف أبعد من هذه الحدود الأربعة، كأن يرتبط ذلك الهدف بالنوع لا بالفرد، أو يرتبط بالمستقبل لا بالحال، كما هو مشهود في بعض الحيوانات التي تحيا حياة جماعية مثل النحل، فإن تلك الحركة غريزية لا واعية، تتم استجابة لقوة أودعها فيها خالقها وخالق هذا العالم.

دائرة مدركات الإنسان ومستوى تطلعاته

هذه الدائرة أوسع من دائرة الحيوان على صعيدي المدركات والتطلعات معًا.

إدراكات الإنسان ومعارفه تتعدى ظواهر الأشياء، لتنفذ إلى أعماق ذاتها وماهياتها، والى روابطها والضرورات المتحكّمة فيها.

إدراكات الإنسان غير محدودة بمنطقة أو مكان وغير مقيدة بزمان، بل تشق عباب المكان والزمان، وتنطلق من رحاب بيئة الإنسان إلى رحاب بيئات أخرى بل إلى كواكب أخرى، وتفهم الماضي والمستقبل، وتكشف تاريخها وتاريخ العالم، أي تاريخ الأرض وما عليها وتاريخ الكواكب، وتتطلع إلى الآفاق البعيدة للمستقبل.

والإنسان لا يكتفي بهذا، بل يحلّق بأفكاره في اللانهايات وفي القيم الخالدة، ويتعرّف على بعضها ويتجاوز حدود المعرفة الجزئية والفردية، ويكتشف القوانين الكلية والحقائق العامة للعالم، وعن هذا الطريق يفرض سيطرته على الطبيعة.

والإنسان يستطيع أن يرتفع بتطلعاته ومتطلباته إلى مستوى سام، فهو موجود يرنو نحو القيم والـمُثُل والكمال. يتطلع نحو أهداف غير مادية وغير محدودة به وبزوجه وأبنائه، بل نحو أهداف عامة شاملة تستوعب جميع البشرية، ولا تحدد ببيئة خاصة أو منطقة معينة أو برهة محدودة من الزمن.

الإنسان قد يبلغ بتطلعاته السامية درجة تفوق فيها قيم ما يتبناه من عقيدة وأهداف على سائر القيم، ويندفع لخدمة الآخرين أكثر مما يخدم نفسه، ويتألّم للآخرين أكثر مما يتألّم لنفسه، ويفرح لفرح الآخرين ويحزن لحزنهم، وتتوثق علاقته بمثله المقدسة حتى يضحي من أجلها.

الجانب الإنساني للحضارة البشرية الذي يمثل روح الحضارة، هو وليد مثل هذه المشاعر والتطلعات البشرية.

ملاك امتياز الإنسان

مدركات الإنسان الواسعة حول العالم حصيلة مساع جماعية بشرية تراكمت وتكاملت خلال القرون المتمادية. وهذه المدركات

تحددت بضوابط وقواعد ومنطق خاص، واتخذت اسم «العلم».

والعلم، بالمعنى الأعم، هو مجموعة الأفكار البشرية عن العالم، بما فيها الأفكار الفلسفية، الناتجة عن المساعي الفكرية البشرية التي اتخذت نظامًا منطقيًا خاصًا.

التطلعات الروحية البشرية السامية وليدة الإيمان والاعتقاد والارتباط بحقائق عن هذا العالم تتصف بالعمومية والشمول (أي تسمو على الفردية)، والترفّع عن المادة (أي ليست من نوع الربح والمنفعة).

وهذا النوع من الإيمان والانشداد هو بدوره وليد بعض التصورات والنظرات العامة للكون والحياة، وهي إما أن تكون صادرة عن الرسل والأنبياء، أو أن تكون قد بشّر بها فلاسفة، استهدفوا نشر الأفكار الإيمانية المتسامية.

على أي حال، التطلعات الإنسانية المتعالية المعنوية المترفعة عن المستوى الحيواني تكتسب اسم «الإيمان» عندما تقوم على أساس اعتقادي وفكري.

من هنا نستنتج أن «العلم» و«الإيمان» هما أساس اختلاف الإنسان عن سائر الأحياء، وهما ملاك «إنسانية» الكائن البشري.

الحديث كثيرًا عما يمتاز به الإنسان عن الحيوان، بعضهم أنكر وجود امتياز أساسي للإنسان عن سائر الأحياء، وذهب إلى أن الاختلاف بين مدركات الإنسان والحيوان إنّما هو اختلاف كمي،

أو كيفي على أفضل حال، لا اختلاف ما هوي. ولم يهتم هؤلاء بكل ما لفت أنظار فلاسفة الشرق والغرب من أهمية وعظمة وعجائب في مسألة المعرفة الإنسانية.

أصحاب الاتجاه المذكور، ينظرون إلى الإنسان في رغباته وتطلعاته على أنه مثل سائر الحيوانات دون أدنى تفاوت بينه وبينها[1].

وبعض آخر يرى اختلاف الإنسان عن الحيوان يتمثل في الحياة، ويعتبر الإنسان وحده ذا حياة، ويعتقد أن الأحياء الأخرى لا إحساس لها ولا رغبة ولا لذة ولا ألم، بل هي أجهزة متحركة تشبه الموجودات الحية. وأصحاب هذا الاتجاه يعرّفون الإنسان أنه موجود حي[2].

ولما كانت آراء العلماء مختلفة فيما يملكه الإنسان من امتياز عن سائر الأحياء، اختلفت أيضًا التعاريف الموضوعة للإنسان، فمنهم من قال إنه: حيوان ناطق، وقال آخرون: إنه حيوان ملتزم ومسؤول و إنه حر ومختار، و إنه متمرد، و إنه خلاق، و إنه متخيل، و إنه يرنو إلى النظام.. و إنه يرنو إلى المثُل و إنه حيوان ميتافيزيقي.. و.. والى آخره من التعاريف التي وضعت للإنسان انطلاقًا من نظرات متباينة لما يميزه عن الأحياء الأخرى.

ومن الطبيعي أن كل واحد من هذه التعاريف صحيح في محله،

١- منهم الفيلسوف «هابز» البريطاني.

٢- نظرية «ديكارت» المعروفة.

غيرأن التعبيرالجامع للاختلافات الأساسية بين الإنسان والحيوان هو: إن الإنسان حيوان «عالم» و«مؤمن».

هل الإنسانية بناء فوقي؟

ذكرنا أنّ الإنسان نوع من أنواع الحيوان، وله صفات مشتركة كثيرة مع سائرالأحياء. وهو يملك أيضًا صفات أساسية تميزه عن بقية الموجودات الحية.

اشتراك الإنسان مع الحيوان في مجالات معينة وامتيازه عنها في مجالات أخرى، جعلاللإنسان حياتين، حياة حيوانية وحياة إنسانية. وبعبارة أخرى، حياة مادية وحياة ثقافية.

وهنا تُثارمسألة العلاقة بين هاتين الحياتين: أي الحياتين أصل والأخرى فرع؟ أيهما أساس والأخرى انعكاس؟ أيهما تمثل البناء التحتي والأخرى البناء الفوقي؟

هذه التساؤلات تُطرح اليوم في حقل علم الاجتماع على النحو التالي:

هل القوّة الإنتاجية أصل وسائرالمؤسسات الاجتماعية فرع لها وانعكاس عنها؟

هل الظواهرالتي تتجلّى فيها إنسانية الإنسان مثل العلم والفلسفة والأدب والدين والقانون والفنّ والأخلاق، كلها مظاهرللواقع الاقتصادي؟

هذه المباحث الاجتماعية تجرّ إلى بحث فلسفي حول الإنسان وأصالته.

وأخيرًا طَلَعت علينا نظرية أصالة الإنسان أو الأومانية لتقول: إن إنسانية الإنسان ليست أصيلة إطلاقًا، بل الأصالة لحيوانيته فقط. وأصحاب هذه النظرية، يذهبون إلى نفس ما ذهب إليه المنكرون للفرق الأساس بين الإنسان والحيوان.

هذه النظرية ترفض أصالة النزعات الإنسانية، كالنزوع نحو الحقيقة والجمال والله. كما ترفض «واقعية» نظرة الإنسان إلى العالم، اذ لا تعتقد برؤية موضوعية واقعية، بل تعتقد أن كل رؤية هي انعكاس عن اتجاه مادي خاص.

ومن العجيب أن أصحاب هذه النظرية، يدّعون الإنسانية والنزوع نحو الإنسانية والأومانية،وهم يبشّرون بمثل هذه الأفكار التي تصادر إنسانية الإنسان!!

الحقيقة أن مسيرة الإنسان التكاملية تبدأ من الحيوانية وتطوي مراحل تكاملها نحو الإنسانية. وهذا المبدأ يصدق على الفرد والمجتمع معًا.

الإنسان، في بداية وجوده، جسم مادي، ويتبدّل بحركته الجوهرية إلى روح أو جوهرروحي. «روح الإنسان» تولد وتتكامل وتبلغ استقلالها في جسمه.

وحيوانية الإنسان بمثابة العش والوكرالذي «تنمو» وتتكامل فيه إنسانيته.

الموجود المتكامل ـ طبقًا لخصائص التكامل ـ يتّجه، كلّما تكامل، نحو السيطرة والتحكم في محيطه والاستقلال عنه. و إنسانية الإنسان تتجه كلما تكاملت ـ على الصعيدين الفردي والاجتماعي ـ نحو الاستقلال والسيادة على سائرالجوانب.

الفرد الإنساني المتكامل، موجود مسلّط نسبيًا على المؤثرات الداخلية والخارجية التي تحيط به.

الفرد المتكامل يعني الموجود، المتحررمن جبرالدوافع الداخلية والبيئية الخارجية، والمرتبط بالعقيدة والإيمان.

تكامل المجتمع يطوي مسيرته بهذه الصورة أيضًا، فنطفة المجتمع البشري تنعقد في المؤسسات الاقتصادية. والجوانب الثقافية والمعنوية تمثل روح المجتمع.

وكما أن بين الروح والجسم تأثيرًا متبادلًا[1]، كذلك الوضع بين المؤسسات المعنوية والمؤسسات المادية.

وكما أن المسيرة التكاملية للفرد تتجه نحو حرية الروح واستقلالها وزيادة هيمنتها، كذلك المسيرة التكاملية للمجتمع. أي

١- الحكماء المسلمون يبينون الارتباط المتبادل بين الروح والجسم بالعبارة التالية: «النفس والبدن يتعاكسان إيجابًا و إعدادًا».

إن الحياة الثقافية للمجتمع تزداد استقلالا وسيادة على الحياة المادية كلّما تقدّم المجتمع في تكامله.

إنسان المستقبل ـ إذن ـ حيوان ثقافي، لا حيوان اقتصادي، إنسان المستقبل، إنسان العقيدة والإيمان والالتزام، لا إنسان البطن والفرج.

وهذا لا يعني طبعًا، أن المجتمع البشري يسير جبرًا وبالضرورة في كل خطواته على خط مستقيم نحو كمال القيم الإنسانية، ولا يعنى أن المجتمع الإنساني يقطع في كل مرحلة من مراحل حياته خطوة متقدمة ومتطورة بالنسبة لسابقتها. فمن الممكن أن يمرّ البشر بمرحلة اجتماعية يهبط فيها منحنى تطوره الإنساني بالنسبة للمراحل السابقة، وهذا ما يقال عن البشرية المعاصرة على الرغم من كل ما حققته من انتصارات في مجالات التقنية!

.. بل يعنى أن الخط العام لحركة البشرية يسير نحو التطوّر ماديًا ومعنويًا، وهذا ما نعنيه بالمستقبل المشرق للإنسان.

إنسان الماضي ـ بموجب هذه النظرية ـ كان قليل الحظ في الاستفادة من مواهب وجوده ومن مواهب الطبيعة، لكنه كان يعيش في أسر الطبيعة وفي أسر حيوانيته. وهو في المستقبل سيستثمر مواهبه ومواهب الطبيعة، وبذلك يتحرر نسبيًا من أغلال الطبيعة ومن أغلال نزعاته الحيوانية ويزداد سيطرة عليها.

واستنادًا إلى هذه النظرية، إنسانية الإنسان ـ مع أنها تبرز جنبًا إلى

جنب مع تكامله المادي والحيواني ـ لا تعتبر تبعًا لتكامله المادي ولا انعكاسًا عنه.

إنسانية الإنسان واقع أصيل مستقل متكامل يؤثر في الجوانب المادية كما يتأثر بها. والذي يقرر المصير النهائي للإنسان هو تكامل جانبه الإنساني الأصيل لا تكامل وسائل الإنتاج.

واقعية إنسانية الإنسان الأصيلة هي التي تستمر في حركتها، وتُطوِّر كل شؤون الحياة بما في ذلك وسائل الإنتاج، لا العكس!

إن دم الشهيد لن يذهب هباء مطلقًا، فهو لا يسكب على الأرض، فكل قطرة من دمه تتبدل إلى مئات وآلاف القطرات، بل إلى بحر من الدم لتصب في جسم المجتمع.

الإسلام لا يحصر العبادة بالأعمال البدنية كالصلاة والصيام أو العبادات المالية كدفع الخمس والزكاة، بل هناك نوع آخر من العبادة، وهو العبادة الفكرية. فالعبادة الفكرية تعادل سنوات من العبادة البدنية وتسمو عليها بكثير، إنّ اتجهت على طريق توعية الإنسان.

من كلام الشهيد مطهري

السمات العامة لفكر
الشهيد مرتضى المطهري

عبد الكريم الاشتر(*)

القصد من هذا الحديث أن نلم بأبرز السمات الفكرية العامة التي تتجلى لقارئ هذا المفكر المؤمن (مرتضى المطهري).

وأحب أن أبدأه بأربع ملاحظات:

الأولى: هي هذه الجفوة المفتعلة التي تقارب الانقطاع بين مذاهب الفكر الإسلامي. فإن المثقفين من أهل السنة لا يكادون يلمون إلمامًا سليمًا بالفكر الإسلامي الشيعي، ولا يكادون يعرفون رجاله معرفة صحيحة. وقد نتج عن هذا إحساس عميق بالغربة، تحولت أحيانًا إلى ما يشبه القطيعة الفكرية بين المذهبين. وتكونت لكل منهما مكتبة خاصة يكاد الناشئون من أهلها لا يعرفون شيئًا عن مكتبة المذهب الآخر، وكتبها ورجالها.

زرت يومًا دارًا لنشر التراث الإسلامي، تراث أهل البيت، في مدينة قم، وتصفحت **بعض ما** تنشره، وراجعت مصادر تحقيقه، فرأيتها

---

*- أستاذ جامعي وباحث سوري.

تقرب، **من** مصادر أهل السنة. إن مفكرًا عظيمًا من مفكري الإسلام، كالشهيد المطهري، استطاع أن ينقل الفكر الإسلامي إلى مستوى الدعوات العالمية في هذا العصر، يمكن أن يظل بعيدًا عن مفكري أهل السنة. و إن مفكرًا عظيمًا من مفكري الإسلام كمالك بن نبي مثلًا، الذي تفحص واقع المسلمين وعرّاه تعرية جريئة، وعمّق درسه للركائز الفكرية في حضارة الغرب، يمكن أن يظل بعيدًا عن مفكري الشيعة.

ثم إن الباحثين من الطرفين، نتيجة لهذا، أصبحوا، إذا نظروا في تراث الطرف الآخر، ضحايا الوقوع في أخطاء كبيرة، إذ يجدون أنفسهم يسبحون في مياه لايعرفون عمقها ولا يعرفون منابعها إلا بالقدر الذي أهّلتهم له معرفتهم بتراث الطرف الآخر.

والملاحظة الثانية: أن مثل هذه الندوات والبحوث والدراسات والأحاديث، ينبغي أن تفهم الغاية منها فهمًا صحيحًا أيضًا. فالغاية أن يقترب بعضنا من بعض، ويطلع بعضنا على دخائل بعضنا الآخر، لنيسر السبيل إلى فهم أنفسنا فهمًا أفضل، وتفحّص واقعنا، والوقوف على أدوائه وطبّه. ما أعتقد أن أناسًا منا يمكن أن يظنوا أن في الإمكان أن ينتقل طرف منا إلى المواقع الفكرية للطرف الآخر. ولكن أحدًا منا لا يظن أبدًا أن الأقدار كتبت علينا أن نسير، إلى نهاية الزمان، في خطين متوازيين: فنحن، في النهاية، نؤمن بكتاب واحد. ونرجع، في الجملة، إلى مصادر تشريع واحدة. ويجمعنا تاريخ

واحد، وواقع واحد. وينتظرنا، مهما تباعدنا، مصيرواحد. إن كلّ من يسيرفي العالم الإسلامي، ويدخل مساجده، ويصلي مع المصلين فيه، ويطوف بأسواقه وحوانيته، ويزوربيوته، ويأكل طعامه، ويتحدث إلى أهله، يدرك، على نحو لا أستطيع وصفه، أنه لو مدّ يده أوشك أن يلمس جدران بيته الذي نشأ فيه.

فمن هنا يكون لدراسة أفكارالشهيد المطهري معناها الخاص. فهذا رجل أعلى الإسلام، في جملة دراساته، فوق المذاهب. وارتفع في درس مُثله وشرائعه وتعاليمه، ورفعنا معه، إلى مستوى إسلامي جامع يستشرف فيه الفرد المسلم أفق الإسلام الفسيح. يكفي أنه كان يدعوإلى أن تدخل إيران درس اللغة العربية، لغة القرآن، في مناهج الدراسة، منذ المدرسة الابتدائية. إذ كيف يتيسر، في رأيه، للمسلم الذي يريد أن يفهم روح الإسلام، أن يصل إلى مايريد، على غيرمعرفة بلغته التي أنزل بها كتابه؟

الملاحظة الثالثة: أن الرجل الذي نذكره اليوم، وندرس فكره، استطاع أن يرقى بسلوكه وفعله إلى مستوى المثال الذي تمثله، والمبدأ الذي آمن به. فهذا هوالامتحان العسيرالذي **يسقط** فيه كثيرمن قادة الفكر، على مدى التاريخ. وهوالمعيارالصحيح الذي يزن قدر رجاله في كل عصر. وهوالذي وصل به إلى مرتبة الأستاذية المطلقة، وانتهى به، آخرالأمر، إلى مرتبة الشهادة.

الملاحظة الرابعة: أن هذا الرجل انطلق، في دراساته كلها، من

إيمان مطلق بكتاب الله، وحكّمه في قضايا الفكر التي عالجها. وجعله معيار كل حقيقة أقرّها، مهما يكن موضعها من مسائل الفكر الإنساني، وتاريخ شعوبه. ولكنه، مع هذا، كان يجهد أن يركن دائمًا إلى العقل وينفذ إليه، بعيدًا من المسلمات الدينية التي يختلف الناس فيها، ثم يعود في النهاية إلى كتاب الله، فتضيء آياته في يديه بنور جديد،

ما أشد ما نفتقده في كثير من بحوث الفكر الإسلامي، في هذا العصر الذي نمت فيه الثقافات الإنسانية، على اختلاف علومها، وتدفقت على الناس كشوفها المذهلة. إن هذا لا يعني أبدًا أن كثيرًا مما أقرّه يمكن أن يقتنع به جميع الناس، على اختلاف مشاربهم ومواقفهم من الدين وأحكامه. ولكن المطهري يظل، في النهاية، مفكرًا دينيًا معاصرًا، يجد فيه المثقفون المسلمون، على وجه الخصوص، ما يقوى به إيمانهم بالله الواحد، وبتراثهم الديني العريق، وبمُثُله وأهدافه الإنسانية، وينفي عنهم كثيرًا من الأوهام التي دسّها المغرضون على الإسلام، وتقوى به ثقتهم بأنفسهم، وبما اختاروه لها، في مواجهة تيارات الثقافات العالمية، والأفكار التي تأتي بها فلسفاتها ومذاهبها الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، مثل المادية والوجودية والليبرالية وغيرها.

لا يستطيع، في كل حال، من يرجع إلى التراث الذي خلفه المطهري، مهما يكن موقفه من الدين وأحكامه، ومن الإسلام

خاصة، من أي مذهب كان، وعلى أي جبهة من جبهات الفكر الإنساني يقف، و إلى أي صف من صفوف السياسات والأنظمة المعاصرة، ينحاز، أن ينكرأن هذا المفكرالإسلامي صاحب ذهن خصب مولِّد، يفتق الأفكار، ويلقح بعضها ببعض، ويركب منها أبنية فكرية جديدة تدعم رأيه وتصوّب تحليله. وقد يبلغ من قوة التحليل أحيانًا أن تتفرّع المسائل في يديه، في خطوط كثيرة يسوق القارئ سوقًا إلى تتبعها وملاحقة تفرّعها.

لقد استجلب، مثلًا، وهو يحلل أفكارالفيلسوف الألماني المادّي (فويرباخ Feuerbach .ت ١٨٧٢م) في نشأة الدين «بسبب تغرب الإنسان عن نفسه» كما يقول، استجلب استنتاجًا من القرآن الكريم يوحي «بأن الإنسان يعاني أحيانًا من حالة يشعرفيها أن فاصلة تفصله عن نفسه». ويصل بينه وبين الآية الكريمة التي تقول: ﴿قل إن الخاسرين الذين خسروا أنفسهم﴾. ويَرِد عليه هنا أن الفلاسفة المسلمين تنبهوا إلى هذا الموضوع، وتعمقوا بحثه. ويقوده هذا إلى مراجعة أساس التصوف والعرفان، المبني، كما يقول: على التفريق **بين النفس** الحقيقية **والأنا** الحقيقية وبين **النفس والأنا الخياليتين**، أي شقّ أستارالنفس والأنا الخياليتين لبلوغ الأنا الحقيقية. ويذكّره هذا بالمثل الذي يضربه الشاعرالفارسي (مولوي) في بعض شعره، عن خطأ الإنسان في التمييزبين جانبه الروحي المعنوي، وهو جانبه الحقيقي، كما يقول، وبين جانبه المادي. ويردّ قول (مولوي)

من جديد إلى القرآن وآيته الكريمة: ﴿ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم﴾. ويولّد منها فكرة التلازم بين العثورعلى النفس والعثورعلى الله، ويصل بينها وبين الحديث القائل: «من عرف نفسه عرف ربه». ويقرربعدها أن القرآن لا يفصل بين معرفة النفس ومعرفة الله، وأن قضية التغرب والغربة مع النفس، في نهاية المطاف، ليست جديدة على المسلمين والمعارف الإسلامية، **بل هي**، كما يقول: «تبدأ من القرآن وتسير، منذ أكثرمن ألف سنة، في مسارخاص».

ويقف هنا ليتحول إلى بحث نقدي في مسألة الاغتراب عن النفس، في الفلسفات الغربية، منذ(هيجل Hegel ـ ت ١٨٣١)، فيأخذ على الماديين أنهم ينكرون وجود النفس من ناحية، ويتحدثون عن الاغتراب عنها من ناحية أخرى!

ثم يعود إلى «فويرباخ» فينقل رأيه في حتمية غروب شمس الدين، مع ازدياد معرفة الإنسان بنفسه، بعد أن جعلت اليهودية الإله شبيهًا بالإنسان، وجعلته المسيحية أقرب إلى الإنسان، وأظهرته للعيان بصورة الإنسان. ثم يأخذ في نقده مرحلة مرحلة، على أساس تاريخي أولًا، وعلى أساس فكري فلسفي من بعد، يُظهران تناقضه ونقصه في تفسيرثنائية الإنسان في فلسفة «فويرباخ». ويعود إلى واقع البشرية فيستشهد به في أن قسمًا منها «ظل دائمًا على نبله وشرف أصالته الإنسانية»، وهو القسم الذي ظل يؤمن بالله وبالدين وأصوله. ثم يطلق، في النهاية، حكمه على مجمل النظرية قائلًا: «تلك، على

كل حال، نظرية منسوخة»، لينتهي في آخر الأمر، إلى إثبات أن الدين «هو فطرة الله التي فطر الناس عليها»[1].

الذي أريده من سوق هذا المثل الطويل أن أمثّل لخصوبة هذا الفكر وقدرته على التوليد واستجماع الأفكار في وقت واحد، للوصول، في النهاية، إلى أبنية فكرية (أحكام) جديدة ومتماسكة. وسينفعنا استذكار هذا المثل من بعد في استخلاص بعض السمات الأخرى في فكر المطهري.

فعلى هذه الشاكلة نجده يحلق، في بحوثه ودراساته، في آفاق الشرق والغرب. ويطوف بالفلسفات القديمة والحديثة. وينقل آراء رجالها. ويتصدى للأنظمة السياسية والاجتماعية المختلفة، ويواجهها بالنظام الإسلامي، ويثبت قدرته على توهينها أو نقضها، بما يحقق لهذا الفكر صفة العالمية، بمعنى اتصاله بالفكر العالمي شرقًا وغربًا، سعيًا منه إلى وضع الإسلام، كنظام للحياة الكاملة، في مواجهة الأنظمة الأخرى في العالم.

وعلى هذه الشاكلة أيضًا تتحقق لهذا الفكر الإسلامي صفة المعاصرة التي يفتقدها، أحيانًا كثيرة، دعاته من مختلف المذاهب، ويخسرون، في افتقادها، كثيرًا من قدرتهم على إقناع الناشئة من المثقفين وطلاب المعرفة، على وجه الخصوص.

---

(١) ـ كتاب (الفطرة) ص ص ١٢٨ ـ ٣٨.

الانفتاح على الواقع

وبهذه الصفة، في فكر المطهري، يتصل انفتاحه على الواقع الإسلامي، في شتى دياره، ووقوعه على أمسّ الموضوعات بمعاناته و إشكالاته، حتى لتسدّ كتبه ورسائله، في هذا الجانب منها، ثغرًا ما تزال مفتوحة فيه، على نحو ما نجد في موقفه من مسألة الزهد، وتمتع المسلم بلذات الدنيا. فالزهد، كما يرى، من المفاهيم الإسلامية السامية البناءة التي انحرفت في أذهان المسلمين. والإسلام، كما يقول، «يرفض أي انفصال بين العمل الدنيوي والأخروي، ويُدخل نشاط الإنسان في الدنيا ضمن العبادات مادام صاحبه يستهدف فيه خدمة الصالح العام. وينفي أن تكون هناك لذة، محرمة مادام المتمتع بها يقف عند حدود الله».

فدور الزهد في الإسلام هو في خلق روح التكافل الاجتماعي. فإذا أخذ به الحاكم المسلم خلق في المجتمع معايير لتقويم الأفراد، لا ترتبط بالمال والمتاع. وهذا الذي يحققه وصف نبي الإسلام بخفة المؤونة: «كان خفيف المؤونة». وعند هذه المعادلة بين التمتع والزهد، يلفت المطهري نظر الناس عن «الانغماس في تلبية حاجات الجسد المادية، لأنه يُغلظ الحس ويضخمه، ويغلق منافذ المشاعر الإنسانية»، إلى اللذات المعنوية مثل لذة الدعاء، ولذة الاتصال بالله، ولذة التضحية، ولذة طلب العلم والتفكير والعطاء[1].

---

(١) .رسالته (إحياء الفكر في الإسلام) ص ص ٣٩ ـ ٤٧..

ومن هذه الوجهة يبدو فكر المطهري فكرًا نقديًا جريئًا، لا يبالي أن يقتحم على المسلمين مواطن الضعف ويعرّيها، حاكمين ومحكومين على السواء. إن العيب في ما يعاني منه المسلمون اليوم ـ كما ينقل عن الشاعر الباكستاني محمد إقبال ـ يكمن في المسلمين لافي الإسلام: «الإسلام حي، بل هو مبعث حياة. والعيب في فكر المسلمين وفي فهمهم الجامد الميت للإسلام. إن الإسلام لم يمت، ولكن المسلمين هم الذين ماتوا. وهم في حاجة إلى نفحة قدسية تحييهم، وتعيد إليهم دورهم الرسالي على الساحة التاريخية».

«إن حياة المسلمين اليوم تبرز الصورة المشوّهة المضحكة للإسلام الممسوخ، فقد انقلبت فيها الموازين والمفاهيم والضمائر. فليس غريبًا إذن أن يفتقد الإسلام قدرته على التأثير والعطاء، وعلى الدفع والتحريك والتوعية».

إن دعوة الإسلام، كما يقول المطهري، هي دعوة إلى الحياة، و إلى خلق المجتمع المترابط المتكافل المتضامن. فأين المسلمون اليوم، كما يقول، من هذا الترابط العضوي؟ هل يقف المسلمون اليوم، كما يقول »على مستوى المسؤولية من قضية فلسطين؟ هل يجسّدون، في موقفهم، قول رسول الله: «من سمع مسلمًا ينادي يا لَلمسلمين فلم يجبه، فليس بمسلم»؟ «إن كل إنسان مسلم واع (يقول المطهري) يرى أجزاء العالم الإسلامي تتعرض لأبشع أنواع

المجازرالوحشية، ولأفظع انتهاكات الحرمات الإنسانية، دون أن تظهرعلى المسلمين آثارالمواساة والتجاوب العاطفي والعملي! بل الذي يزداد ظهورًا فيهم: اتجاههم نحوالمزيد من الشقاق والنفاق والعداء»[1].

وقد وصل المطهري، في نقده، إلى أن يعمّ به المسلمين من مختلف المذاهب، وفيها مذهبه، فحقق هذا لفكره صفة النزاهة والموضوعية في أخص ما يؤخذ على كثيرمن الدعاة، في كثير من الأحيان.

الفكرالإصلاحي

فكرالمطهري إذن فكرإصلاحي، يرمي إلى النهوض بحياة المسلمين وبالمجتمع الإسلامي، على أساس التمسك بحبال العقيدة الصافية، عقيدة التوحيد المطلق، والعودة إلى جادة الإسلام الحي، ونفي مظاهرالموت التي رافقت مسخ المفاهيم الإسلامية الأصيلة في المجتمعات الإسلامية[2]. لقد كان يدرك أن الدين على إطلاقه، وفي مجمل معانيه، يقابل في هذا العصرتحديًا صعبًا. فاتجه في بحوثه الفلسفية إلى إثبات أن الدين الذي يعني، في نهاية أمره،

---

(١) .انظر كتابه السابق ص ص ٢٠ ـ٦.

(٢) .الكتاب السابق ص ٢٩.

الإخلاصَ لله والصدق في عبادته، هو غاية الحياة الإنسانية وهدفها السامي. ذلك أن الإيمان في ذاته هدف، لأنه يعني ارتباط الإنسان بالحق. والارتباط بالحق في نظرالإسلام كمال. والعبادة العليا هي وسيلة لارتباط الإنسان بالله. وليست وسيلة لارتباط الإنسان بالأشياء الأخرى. فمفهومها يساوي مفهوم العشق للحقيقة. وهذا يعني أن الله ليس وسيلة حتى لحياة الإنسان في الآخرة. بل هو، في ذاته حقيقة، وفي ذاته مطلوب حقيقي. «ليس الجمال هدفًا، كما يقول، ولا العدالة هدف، ولاالمحبة هدف. بل الهدف هوالله والحقيقة لاغير ولاغير». ذلك هو هدف الحياة السامي ومعنى الكمال الإنساني في الإيديولوجية الإسلامية، كما يقول[1].

ولهذا الغرض الإصلاحي **أيضًا**، اتجه في بعض بحوثه إلى الدفاع عن الإسلام، في وجه الدعوات الأخرى. وبحث في تخلف المسلمين وتصحيح المفاهيم السائدة في أذهانهم، مثل الاستهانة بالعمل، والركون إلى أوهام الاعتقاد بالحظ والعبثية، و إلى التواكل والتفريق بين الإيمان والعمل الذي نادت به المرجئة منذ العصرالأموي[2].

وحفزه هذا المطلب العزيزإلى **إلقاء الدروس والمحاضرات** في جماهيرالناس، على اختلاف مراتبهم الفكرية، حتى أصبح التعليم

---

(١) ـ كتابه (الهدف السامي للحياة الإنسانية) ص ص ١١٥ ـ٢٠.

(٢) ـ كتابه (إحياء الفكرفي الإسلام) ص ص ٢٥ ـ٦.

سمة ملازمة من سمات فكره أيضًا. وكان يستعين في بعض دروسه المبسّطة بالأمثلة الحية ينتزعها من واقع الناس، وبالحكايات الطريفة، وينوّع أساليب الخطاب، فيختارلكل جماعة اللغة التي تناسب مداركها العامة.

من هنا نجد في تراثه الخطبة والمحاضرة والمناقشة والتأليف. فمن يقرأ كتبه المؤلفة مثل *المجتمع والتاريخ* الذي نقد فيه النظرية الماركسية المادية في تفسيرالتاريخ، وكتابه الآخر *العدل الإلهي* الذي بسط فيه تفسيرالإسلام للحياة والكون، والخيروالشر، والثواب والعقاب، واختلاف الكائنات والموجودات، يدرك أي مرتقيات فلسفية عالية ارتقاها هذا الفكر.

ومن يقرأ كتاب *الفطرة* الذي انتهى فيه إلى أن الدين خالد لأنه مركب في الطينة المفطورة المتطلعة دائمًا إلى المبدأ والمعاد، وكتابه *معرفة القرآن* الذي وقف فيه على كليات كتاب الله ومفاصل دعوته الموحّدة، وجنح فيه إلى تفسيرالآيات التي اختارها، على نحو خاص متسق مع أغراض الكتاب. من يقرأ مثل هذه الكتب يدرك أن المطهري اتجه فيها إلى أوساط المثقفين.

ثم إن من يقرأ رسائله الصغيرة كرسالة *الدعاء* و*التفكيرفي التصورالإسلامي* و*إحياء الفكرفي الإسلام*، يدرك أنه خاطب فيها جمهورالمتعلمين والطلاب.

على أن المطهري، في هذه البحوث والدروس والمحاضرات والمناقشات، يظل يجول في أفقه الخاص، ويحتفظ بجلال فكره وقوته ونفوذه، و إن اختلفت أساليب التأدية، مما يمكن أن تستخلص منه سمة **أخرى من سمات** هذا الفكر، وهي صفة **المرونة** التي مكنته **من** الوصول إلى عقول الناس، بأرفع **الأفكار**، على اختلاف مراتبهم.

الفكر الإسلامي العميق

مجمل ما ننتهي إليه في هذا الحديث: أن المطهري صاحب فكر إسلامي عميق متحرر، في بحوثه، من قيد الجنس أو المذهب، و إن لم يتخل عنهما. وهو يحتكم فيها إلى العقل و إلى الواقع و إلى مجموع مكونات الشخصية الإنسانية. وتردفه ثقافات إنسانية غنية ومنوعة: فلسفية واجتماعية ونفسية وتاريخية وفقهية ولغوية وأدبية، واطلاع على جملة من قوانين العلوم التجريبية كالفيزياء والفلك. وقد أحسن هضم هذه الثقافات وتسخيرها في الكشف عن قدرة الإسلام الخارقة على بناء الشخصية الإسلامية المكتملة، في نظرتها العامة إلى الكون وخالقه، والإنسان وغايته المثلى من الحياة، وعلى بناء المجتمع الإسلامي على أسس العدل الإلهي الذي يعني أن العلاقة بين الإنسان وأخيه هي علاقة الشركة والتعاون، وأن التدرج في

مراتب الوجود يتطلب نوعًا من الاختلاف بينها في النقص والكمال، والشدة والضعف. وتعني أيضًا أن السيادة والملك في الأرض لله وحده، وأن الإنسان هو خليفته فيها وحامل أمانته إليها. وهي تعني العمل على إيصال الموجودات إلى كمالها وغاياتها، بعد أن دفعها الله من العدم إلى كمال الوجود[1].

ثم هو فكر نقدي إصلاحي مخالط لواقع المسلمين، قريب جدًا من أسباب معاناتهم وتخلفهم، متجه إلى تصحيح مناهج تفكيرهم، وتقويم المفاهيم الخاطئة فيه، ودرْس حركات الإصلاح الإسلامية ونقدها (كالوهابية والبهائية والأتاتوركية والدكتاتوريات العسكرية في بعض الأنظمة الإسلامية)، داع إلى الحركة ونفي السكونية، و إلى إعادة اللحمة بين الإيمان والعمل[2]، و إلى الثقة بالنفس وبقدرات الثقافة الذاتية الأصيلة على النهوض بحياتهم إلى المرتبة الإنسانية اللائقة بموقع حضارتهم من حضارات العالم.

وهو، بهذه المثابة، فكر اقتحامي، ثوري في بعض جوانبه، لا يبالي أن يُعمل معوله في أكثر الأنظمة السياسية القائمة في العالم الإسلامي، وينال من الدائرين في فلكها، والناطقين بأهوائها، والمدافعين عن سياساتها، والساكتين المؤثرين للعافية، ممن يُسمّون

---

(١) ـ كتابه (المفهوم التوحيدي للعالم) ص ٨٠.

(٢) ـ كتابه (إحياء الفكر في الإسلام) ص ص ٢٤ ـ ٥.

رجال الدين. ففي دعوته إلى إحياء الفكر الإسلامي منهجان، كما يقول:

ـ منهج سلبي يقوم على اقتلاع المفاسد و إماتة البدع لتمهيد الأرض.

ـ ومنهج إيجابي يقوم على تقديم مفهوم الإسلام الصحيح للناس، في شتى مناحي الحياة، و إحياء **لسننه.**

وهو ما يجلوه تراث المطهري كله.

فهو إذن، في النهاية، فكر يؤمن بالإصلاح الشامل الذي يعيد تكوين الشخصية الإسلامية القادرة على تحقيق المثل الإسلامي، لا الإصلاح الترقيعي الذي يذهب، في النهاية، بحقائق الإسلام.

وغاية ما يثير الإعجاب في هذا الفكر: اللحمة التي حققها صاحبه بين القول والعمل. فقد ظل يجاهد بهما معًا في الساحة حتى انتهى فيها إلى الشهادة. وهي، في النهاية، أقوى حجة يدلي بها الصادقون من رجال المبادئ.

وتبقى صفات أخرى لفكر الرجل يمكن أن تستخلص مما قدمناه، مثل الدقة التي تبين، أقوى ما تبين، في التمييز بين المصطلحات، وفي فهم النصوص وتقليبها واختيار المفردات المناسبة في شرحها وتوضيح مقاصدها. وصفة الوضوح التي تبين، أقوى ما تبين، في اختيار الأساليب المناسبة لتقديم أفكاره إلى الناس، حسب

مراتبهم الفكرية، دون أن يضحي بجوهرها، أو يقع في ترقيقها أو تسطيحها، على نحو ما فعل في توضيح فكرة الجدلية بين الفكر والواقع[1].

إن غاية ما أراده المطهري، في مجموع تراثه وعمله: أن ينتفض العالم الإسلامي عن حقائقه الراقدة في الأعماق، ويقدم للعالم أسلوبًا آخر، غيرأسلوب الغرب، في فهم الحضارة الإنسانية ومكان الإنسان منها ومن الكون جملة، على أساس إسلامي يعيد صلة الأرض بالسماء، ويقيم حكم الله فيها، ويوضح معنى خلافة الإنسان لله، ومعنى الأمانة التي حمّله إياها.

(١) .انظر كتابه (إحياء الفكرفي الإسلام) ص ١٤.